أشرف الخمايسي

كي أكون إنسانًا أجمل

مشاهد من الحياة

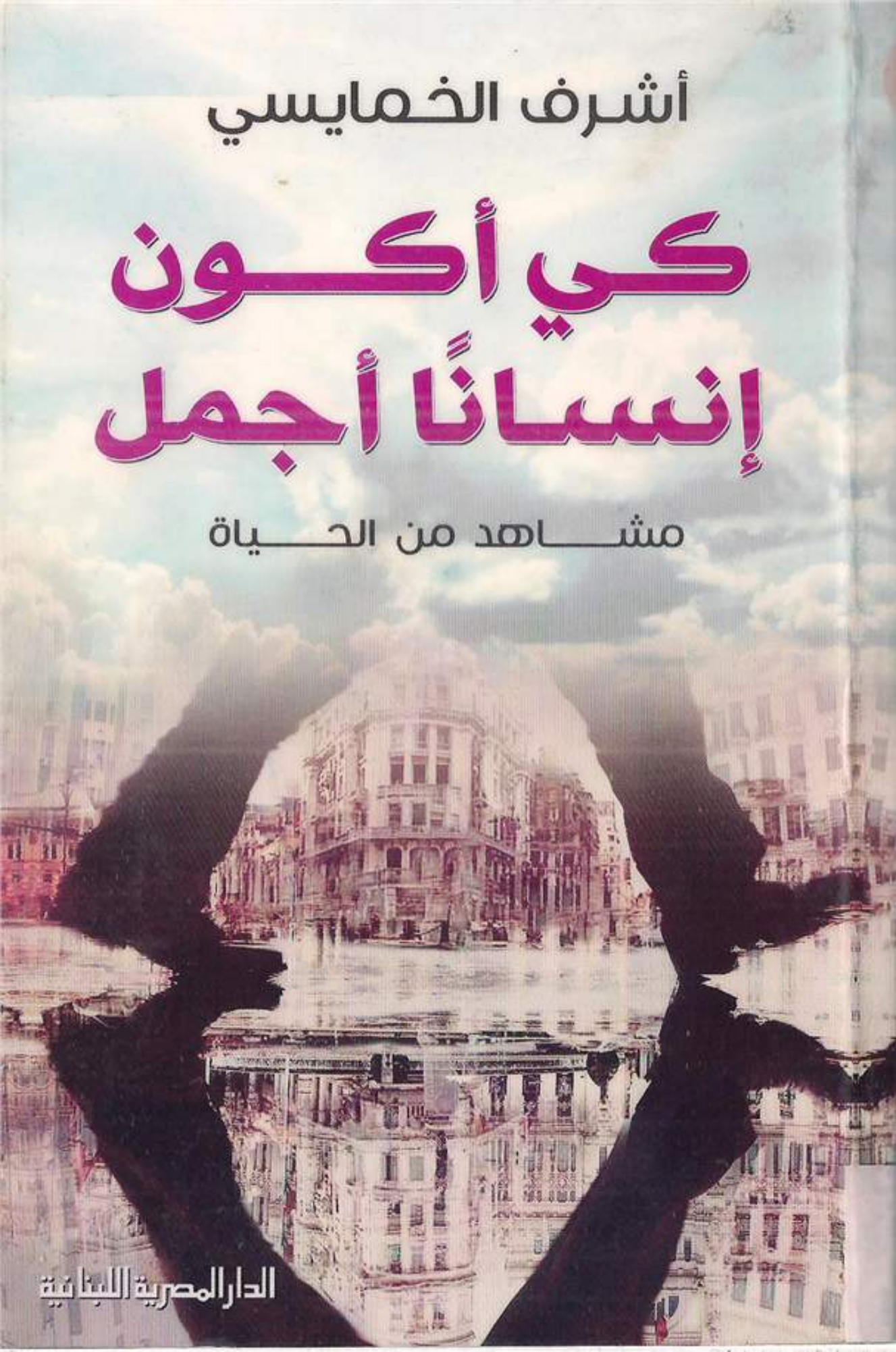

الدار المصرية اللبنانية

أشرف الخمايسي

كي أكون إنسانًا أجمل

مشاهد من الحياة

حمداً لله رب العالمين

البديع أوجد الجمال، ومن الجمال خرج القبح.

ليس من الحكمة أن نقلل من قيمة شيء أصله الجمال.

علينا أن نفهم القبح جيداً كي نحبّ أرواحنا.

حُلمي الجميل

يحيا الإنسان يومه كاملا، بكل ما فيه من مرارات، ولحظات حلوة، حتى إذا ما جاء الليل، ورفرف الكرى، وتمدد لينام، وجد نفسه في عالم آخر، عالم عجائبي، فيظل الصحو، ليعيش في منامه مراراتٍ أخرى قد تتضخم فتصير كوابيسَ، ولحظات حلوة قد تشفّ فيرى نفسه يعانق حور العين في جنات «الفردوس».

بالأحلام يبقى الإنسان، دائما، في حالة صحو.

زمان، كانت هناك ممثلة جميلة، اسمها «ليلى حمادة»، نجمة «التليفزيون» وقتها، وكنت أمرّ في فترة المراهقة، وأحببت هذه الممثلة جدا، فصرت أتتبعها في أي مسلسل، وصارت البنت الحلوة، في نظري، هي تلك التي تشبه «ليلى حمادة».

وفي ليلة جميلة، ذكراها لم تنمح من ذاكرتي حتى الآن، رأيت «ليلى حمادة» جالسة على الكنبة التي في حجرتي، تنظر لي وتبتسم ابتسامتها الملائكية، فاتنة الجمال البنت، شعرها الأصفر الحريري يفيض حول رقبتها المقدودة من مرمر، وخدّيها السكر، بعينيها المملوءتين بمرح الحب، وشفتيها المشحونتين بلهيب الغرام، تنظر لي وتبتسم، كنت أجلس إلى «ترابيزة» خشبية رديئة، أذاكر دروسي، لكن «ليلى» هزت رأسها

بـدلال الغواني، وضحكـت، وفردت ذراعيها تدعونـي لحضنها الرائب، أنا قمـت، وتحركت نحوهـا مذهولا، «ليلى حمـادة» في غرفتـي؟! وتدعوني لأحضانهـا؟! وفجـأة وجدتني غارقا فـي قبلة حارة طويلـة، أول قبلة أمص فيها شفتي امرأة في حياتي.

- هاهاهاهاهاه.. أول بوسة في حياتك بوسة وهمية لامرأة وهمية!

- بس كانت بوسة يا حبيبي.. بوووووسة.

- وبعدين؟

- ولا قبلين! صحيت.

قبلـة أخـرى أسـكرتني، وجعلتني أطيـر بيـن زروع الحقـول، وهامات النخيـل، قبلـة خطفتها خطفا من «حنان» قبل أن تصيـر زوجتي، كانت تقف تحت شـجرة برتقال فـي حديقة أشـجار الفاكهـة، الملاصقـة لبيت عمي، و«حنان» بنت عمي، أميرة الخضرة، وربة الغيطان، تطلع على دنياي شمسـا مضيئـة، وروحا للبكارة، أريـد تقبيلها، وهي تتمنع، وتسـتحيل، وأنا أترقب لحظة القنص، حتى ملكتها، وخطفت القبلة.

كانت لحظة مثل حلم.

الآن، تهفـو روحي لتقبيل شـفتي «أمينـة»، المرأة التي يخيـل لي أن الله قد خلقها من طمي النيل، وجعل شـفتيها لافحتين بوهج الرغبة والاشتهاء، هي القبلة الثالثة لأنثى تراود أحلامي يقظة ومناما، هي القبلة التي سـيكتمل بها ثالوثي المقدس، فامنحني يارب شـفتي «أمينة»، أمصهما، طقسـا بديعا، قربانا لسكينتي، ولو في عالم الأحلام.

وزمـان أيضـا، أعلنـت الجريـدة الأدبيـة عـن مسـابقتها الأولـى للقصة القصيرة، ولـم تكن لديّ قصة للدخول بها في المسابقة، وكنت قد قررت أن أفوز بالمركز الأول، بقيت أياما أتسـوّل فكرة، أية فكرة، وعالم الإبداع يأبى العطـاء، وفـي ليلة باردة، وبينما أنا تحت غطائي، أتسـكع فـي تلك المروج الضبابيـة التـي تمتـد مـا بين الصحـو والكـرى، ينبلـج الإبداع عـن عطائه، وتتهادى أمامي عربة «كارو»، يجرها بغل غبي، يسـوقها «عربجي» متجهم، و ... سـطعت الفكـرة، وكتبـت القصة، «عجـلات العربة الـكارو الأربع»، وأرسلتها إلى الجريدة عبر البريد، وأسلمت نفسي للانتظار.

وعندمـا اقتـرب ميعـاد ظهـور النتيجـة بـدأ القلـق، وكلما اقتـرب اليوم المنتظـر اشـتد القلق، حتى جاءني هـذا الرجل العجوز في ليلـة ربيع، مهيبا بلحيته البيضاء، المنسـدلة منسابة على صدره، وعيناه مملوءتان عطفا ورقة، وجلبابـه الأبيـض يهفهف مثل أجنحـة ملائكة. كنت واقفا في أحد شـوارع «الأقصر» أمسـك بيدي سـمكة متعفنة، أهم بإلقائها بعيدا من فرط عفونتها، والدنيا ليل، والشارع صامت، فسمعت صوته المحذر قويا: لا تلقها.

قلت له: إنها متعفنة.

مـد يده وأخذها مني، شـق بطنها المتهرئ بأصبعه، وأخـرج منها خاتما فضيا كبيرا، جميل الزخرفة، أعطاه لي وهو يقول: ضعه في أصبعك.

وضعـت الخاتم الفضي في أصبعي، فإذا أنـوار مبهرة تتفجّر منه لتنطلق في شـعاعات لا حصر لها ولا عد، تنشـر النور في السـماوات والأراضين، ومـن خلف سـتارة النـور التي صنعتهـا الأشـعة، كان وجه العجوز باسـما،

وفي لحظة الفرح الطاغي بالخاتم، انتابني إحساس بأن هذا العجوز سوف يأخذه، أليس هو من اكتشف وجوده في قلب سمكة متعفنة كنت سألقي بها إلى أبعد مكان؟ لكن جاءني صوته حانيا: الخاتم حفظته الأقدار لك في قلب سمكة متعفنة.. حتى لا يأخذه غيرك.

وصحوت.

- هاهاهاهاهاه.. دا انت عليك شوية أحلام! وبعدين؟!

فزت بالمركز الأول، مناصفة، مع البنت التي يخيل لي أن الله قد خلقها من طمي النيل، «أمينة» التي لها شفتان لافحتان بوهج الرغبة والاشتهاء، أطلب من الله الآن أن يمنحني مصهما، ولو في الحلم.

وزمان، تركتُ الكتابة، لمّا رأيتها مطيةَ المدّعين، وميدانَ فرسانٍ لا يصولون إلا على الورق، ورحتُ إلى بلاد الدين، وعشتُ مع السلفيين، نجوب القرى، والمدن، ندعو المسلمين إلى حقيقة «الإسلام».

الإسلام، عقيدة «العقل»، ودين «الرحمة»، ودعوة «العلم»، وتقديس «العمل».

الإسلام إنسان، لا ملاك ولا شيطان، و«محمد»، صلى الله عليه وسلم، إنسان، ضحك في وجه من بال داخل المسجد، واحمرّ وجهه غضبا من فعل الثلاثة الذين أخذوا أنفسهم بالشدة في الدين.

وأطلقتُ لحيتي، وقصّرت جلبابي، الشكل مهم، مثل المضمون تماما، الشكل يجبرك كثيرا على تحقيق المضمون، كانوا يقولون: ربِّ لحيتك تربِّك.

اللحية لن تسمح لك بـ «البصبصة»، ولا بمغازلة النساء، ولا بتدخين السجائر، ولا بإتيان أي منكر، عندما تطلق لحيتك فأنت تتشبه بالأنبياء، وما أروع أن تتشبه بخير خلق الله كلهم.

وأحببت النبيّ «محمد» جدا، وما زلت أحبه، وسأظل أحبه، لكن زمان كنت أشفّ، وأجمل، مع الله، أبحث عن رضاه، لي هفواتي، بل لي سقطاتي، فأنا الإنسان الناقص بنفسه، الكامل بنقصه، لكن لا ضير، هفواتي تسقطني وأنا على الطريق القويم، وأن أمشي، وأسقط، في الطريق الصحيح، خير من أن أمشي وأسقط في الطريق الخطأ، هناك يوما ما سأصل، لكن هنا لن أصل مطلقا.

وأحببتُ أن أرى «محمد»، وليس هناك من سبيل إلى رؤيته إلا في المنام، ومن رآه في المنام فقد رآه حقا.

وفي ليلة، وجدت نفسي أمشي في مدينة صغيرة هي أشبه بالقرى، أبحث عنه، ثم وجدت نفسي في متسع داخل أحد البيوت، وامرأة صغيرة لم تبن لي ملامحُ وجهها، ترتدي السواد، وصوتها المملوء بالشباب يقول: رسول الله مش هنا.. خرج من فترة وما رجعش لغاية دلوقتي.

خرجت وأنا أتساءل : هل هذه هي «فاطمة» الزهراء؟

ثم وجدت نفسي خارج حجرة، تحت سقيفة بسيطة من جريد النخل، حولي جرارٌ وأوانٍ من فخار، وأمام باب الحجرة وقف أحد الرجال، قال لي: ماذا تريد؟

قلت: أريد لقاء رسول الله.

قال: انتظر حتى أستأذن لك.

وخـرج الرجل بوجهٍ باسـم، وفتح لي الباب، ودخلـت، رأيت «محمد» يجلـس في صـدارة الحجرة، وعلى يمينه جلس ثلاثـة رجال، لم أعرف من هـم، ولم يكن يهمني ذلك، فقـط كنت أريد أن أعبئ عيني برؤية هذا الرجل الأعظم على مر العصور، ونظر لي بوجهٍ باسـم، ففرحت، وكيف لا أفرح يا ناس ورسول الله يضحك في وجهي؟! ومدّ يده الشريفة ليصافحني، ورغم أنـي لـم أكن قـد خطوت ناحيته أيـة خطـوة، إلا أنني وجدتُ يـده في يدي، فسارعت بضم يده الكريمة بين كفي، وانهلت عليها تقبيلا، وظلت يده بين كفي، حتى تركتها حياء من أن أكون قد أثقلتُ عليه.

وخرجـت، وصببـت من أحـد الجرار نبيذا مما كان يشـرب منه رسـول اللـه في قعب صغير، وأخذت أشـرب، النبيذ حلو، أحركه بسـبابتي، فيزداد حلاوة، وأشرب، وأشرب....

وأذن الفجر.

حلاوة لا تُدانَى، ورواء في رواء من رواء، الله أكبر.

وكان رجـل قـد ذهب إلـى النبي «محمـد»، وقد اقتنص قبلة من شـفتي حسـناء، ذهـب يحمـل ذنبه الكبيـر، فما عنّفـه الحبيب، ولا حتـى قطّب في وجهه، وإنما نصحه بالاستغفار.

يا الله، يا من جعلت كمال الإنسان في نقصه، وخلقتَ الحسناوات فتنة لكل لبيب حازم، امنحني شـفتي «أمينة»، أمصهما، أرشـف نبيذهما الحلو، أحركه بلساني فيزداد حلاوة، وعندما أفيق من سكري، سأستغفرك.

وصحوت.

«القاهرة» 2012م

سيمياء النصّ الإبداعي

حتـى الآن، بعـد مرور أكثر من خمس وعشـرين سـنة، منذ بـدأت كتابة شـيء يمكن وصفـه بالقصة القصيـرة المكتملة، ومع محصول سـردي بلغ أربع مجموعات قصصية، واحدة منها للأطفال، وثلاث روايات، لا أزال لا أفهم كيف، بالضبط، أكتب ما أكتبه، أو بالأحرى، كيف أبدع ما أكتبه؟!

هذه إشكالية..

البدايـة، الشـيء الأول، أول الشـيء، الـرأس، توقيـت البـزوغ، بكورية الفعل، هذه كلها لحظات يصحبها انفجارٌ مدوٍّ يبقى ضجيجه يتردد بالذكرى في روح كلٍ منا حتى نبلغ سكون الصمت، الموت.

لذلك لن أنسـى أبدا الوقت الذي كتبت فيه القصة الأولى، ولا عنوانها، «الإنسـان والشـمعة»، كتبهـا أنا، «أشـرف مصطفى عبـد السـميع»، التلميذ بالصـف الثانـي الثانوي العسـكري، وقدّمها لأسـتاذ اللغة العربيـة، «أحمد أبـو الوفا»، الذي استحسـنها، وكتب فـي ذيلها نصيحة تحضّـه على القراءة لـكل من «نجيب محفوظ»، و«توفيق الحكيم»، و«طه حسـين»، و«يوسـف إدريس».

لماذا كتبت هذه القصة؟!

إشكالية أخرى!

هل هناك ارتباط بين الإشكالية الأولى والإشكالية الثانية؟

أتذكرُ أن أبي كان قد شرعَ في بناء بيتٍ على أطراف «الأقصر»، صارت هذه الأطراف، الآن، في القلب من المدينة، لقد أقيم البيت في الحقول الخضراء، طابق وحيد، نصفه مسقوف، ونصفه عراء، وذات مرة كان الفلاحون يسقون الغيطان في الليل، وانفلت ثعبانان هاربان من شقوق الأرض، ليخترقا أسفل باب البيت، ليفاجئانا بالرعب.

أبي، وأمي، وأنا، وأختي الصغيرة، ليس هناك نور الكهرباء، وإنما ضوء لمبات الكيروسين البدائية، أم بنورة نمرة خمسة، كأن عاصفة رفعتنا من الأرض، وأبي أمسك بكرسي خشبي صغير، كرسي حمام، وضرب أحدهما على رأسه فهشمها، الآخر دار على عقبيه لينسلّ عائدا، دلف من تحت الباب، لم يكن ممكنا أن يُسمح بهروبه، فالأسطورة تقول «الثعبان لا بد وأن يعود للثأر من قاتل وليفته.. أو تعود للثأر من قاتل وليفها»..

فتح أبي الباب حاملا نفس الكرسي، هرول في الظلام خلف خيط داكن يتلوى على الأرض منطلقا نحو الحقل الغارق بماء الري، مطاردة المصير، لو تمكنت الأفعى من الهروب صارت حياة الأسرة كلها معرضة لخطر الانتقام.

دخلت الماء، ومن غير تفكير دخل أبي خلفها، كانت قد اختفت تماما في دكنة الماء المخلوط بالظلام عن ناظريه، فأخذ يضرب الطين بالكرسي، وصوت صفعات الخشب للماء يمتزج بصوت عادم ماكينة الري البعيدة، القادم بانتظام كعطاس كلب مريض: تشك .. تشك .. تشك.

عاد أبي أدراجه وهو لا يعرف إن كان قد أصاب الأفعى الهاربة أم لا.

الخوف يؤدِّي إلى القتل.. والحب أيضا.

هناك وقتٌ غير معلوم ستعود فيه الأفعى كي تنتقم لوليفها.

هذه اللحظة منحت الإنسانية موقفا عجائبيا، من شيء يكاد يكون لا شيء، مجرد حيات هاربة من الموت غرقا، وبشرية تحاول الهروب من الموت لدغا، التقى منبعا الخوف لينبلج السحر، ولنعرف أن القتل لم يكن من أجل الخوف، وإنما من أجل الحب، أبي يقتل من أجل محبته لنفسه وأسرته، وحية ستعود للقتل ثأرا لوليفها.

الخوف مجرد دافع، والدنيا ساحرة بالفطرة.

حدث جرى منذ ما يقارب الأربعين عاما، لكن ربما صوره غابت في الحقول الكهرومغناطيسية الفضائية لآلاف السنين الضوئية، وكذلك الأصوات المصاحبة له، وأن تستعيد هذا المشهد، بتفاصيله، صورةً وصوتا ودفءَ أحاسيس، ليراه الآلاف، وربما الملايين، رؤية عين، ويتفاعلوا به، ومعه، كأنهم أبطاله الأصليون، فهذا ضربٌ من ضروب الإعجاز السحري، لا يأتي به سوى المبدع.

«الخوف» هو المفجر الرئيس للسحر..

فالسحر أمر غرائبي.. ولقد كنت طفلا لا يتعدى عمره الثلاث سنوات، أمي تكفأني على فخذها، ليتدلى رأسي نحو طشت نحاسي واسع ممتلئ بالدماء، دمائي التي تنهمر ساقطة من شعري ووجهي، وأمي تهمس بحدة: عشان تاني مرة تتعلم تقفل بوزك وتبطل خبص لابوك.

لم يحفر مشهد تفاصيله داخل وجداني مثلما فعل هذا المشهد، الطشت المليء بالدم المتساقط من مناحي رأسي المختلفة.

في واقع الأمر لم يكن كل ما بالطشت دمي، كان ماءً مُزج بقطراتٍ من دمٍ تساقط من أنفي بسبب ضرب أمي لي.

لكن لحظة الرعب هذه فتقت في القلب عيونا أخرى، فائقة، تلتقط السحر في أي منظر.

ما كان لهذه العيون أن تكون لو لم يخلقها الخوف.

اللغة ليست أداة السحر في النص الإبداعي، وإنما أهم تجلياته.

ترتيب الكلمات، بناؤها، تصورها في العقل، استجلابها من أقصى مكان في الوعي السردي، للكاتب، كي يتمكن من صناعة التخييل ببراعة، هذا هو السحر.

السيمياء إحالة التراب الرديء إلى ذهب نفيس.

السيمياء إحالة كلمات منفصلة، ملقاة في دواخلنا، إلى شاشة عرض لأحداث إما لا وجود لها بالأساس، أو حدثت وذهبت في الكهرومغناطيسي، تراد من عرضها أهداف عديدة.

أحد هذه الأهداف تحقيق تواصل مقدس بين الدناءة البشرية والسمو الإلهي الكائنين في نفس المبدع، لا أقصد التطهر اللحظي، وإنما المعالجة الدائمة لهزائمه الأخلاقية المستمرة على مدار الساعة.

الإبداع وهمٌ قادر على جبر كسور الحقائق.. وهذا هو لب السحر، وسر أسراره.

الكلمات أقامت أمما.. كيف لكلمات أن تقيم أمما؟

النصوص أقامت عقائد.. كيف لنصوص أن تقيم عقائد؟

الكتب شيدت حضارات.. كيف لكتب من أوراق هشة أن تشيد الحضارات؟!

ما هي تلك القوة الخلاقة المكنونة داخل تكوين الكلمة، التي ما إن يستلهمها المبدع، الساحر، فينطق بها بيانا، أو يكتبها نصا، حتى تتفجر في دناءاتنا لصالح سمونا، تقيم الإنسانية طازجة كطزاجتها على سفينة نوح، تمخر بها عباب الهلاك إلى نجاة متصلة؟!

إنها قوة السحر الإلهي، لا السحر الأسود.

ففي قلب كل مبدع متسعٌ لروح الله، وروح الله تهب القلب المضياف قوة السحر المخبوءة بين حرفين يكونان كلمة الإرادة ورمزها: كن.

كن، أيها العالم بين دفتي روايتي، فيكون.

الكتابة أسمى تجليات السحر.

والمبدع أعظم السحرة.

كي أكون إنسانًا أجمل

انقضى نهار يوم 18 ديسمبر من عام 2010.

النهار الأخير من نهارات مهرجان «طيبة» الثقافي الدولي الثلاثة.

وفي الليل كانت الجلسة الختامية التي حضرها السيد اللواء الدكتور «سمير فرج» محافظ «الأقصر»، وقتها، وقد جلس في منتصف المنصة، وعن يمينه جلس كل من رئيس اتحاد كتاب «مصر»، الأديب «محمد سلماوي»، وأمين عام الدورة الثالثة من المهرجان، الشاعر «مأمون الحجاجي»، وعن يساره جلس كل من المتحدث باسم الضيوف العرب، لا أذكر اسمه، والمتحدث باسم الضيوف الأفارقة، أيضا لا أذكر اسمه.

كان نجاح ثورة شعب «تونس» هو حجر زاوية أي حديث جرى بين الأدباء المشاركين في المؤتمر، وكان هذا النجاح محل إعجاب كبير، وتمنى كل أدباء «مصر» لو يحدث في وطنهم مثل ما حدث في «تونس»، لكن الأمر لم يتجاوز الأمنيات أبدا، خاصة وأن رد فعل النظام المصري، وقتها، على نجاح ثورة «تونس» إعلانه احترام إرادة الشعب التونسي، كما شدّد على أن «مصر» ليست «تونس».

فعلا.. «مصر» ليست «تونس»، لأن «تونس» لم يعُزْها سوى احتراق شخص واحد كي تثور، بينما كان قد احترق في «مصر» أكثر من خمسة أشخاص ولم ترتعد مجرد ارتعادة طفيفة.

كانت، هذه المفارقة، محلّ تندر المشاركين في المهرجان، حتى قالوا إن المسألة ليست أكثر من مجرد تحقيق النسبة وستنفجر «مصر». فـ«تونس» ثمانية مليون نسمة، بينما «مصر» ثمانون مليونا، «مصر» تحتاج لاحتراق عشرة أشخاص، ولم يكن قد احترق سوى خمسة فقط!

وهناك من قال: إن «مصر» لن تحرك ساكنا ولو احترق ألف شخص.

وقالوا: صدق القدماء عندما وصفوا أهل «مصر» بأنهم عبيد لمن ملكهم.

وقالوا: إنه قد أتى، في قول مأثور، أن الرخاء قال: إني ذاهب إلى «مصر». فقال الذل: وأنا معك.

وبلغ التهكم، والتندر، الزُّبى، وجرت أحداث الجلسة الختامية لمهرجان «طيبة» الثقافي الدولي، ومن فعالياتها قراءة توصيات المهرجان، أتت فقرة فيها تحيي ثورة شعب «تونس» الرشيدة، وعلا صوت التصفيق الشديد.

وكان همي، وقتها، أن أراقب السيد المحافظ، في هذه اللحظة، بصفته ممثلا للنظام المصري في «الأقصر»، وأدهشني أنه كان يصفق بحماسة شديدة، نعم، كان يصفق بكل ما أوتي من قوة وقد ابتسم ابتسامة عريضة، ولقد أسعدنا هذا جميعا، لكن بالتأكيد، بالتأكيد، بالتأكيد، ما كان للسيد المحافظ «سمير فرج» أن يرحب، كل هذا الترحيب، بنجاح الثورة التونسية، لو كان الله، عزّ وجل، منَّ عليه بقدرة الاطلاع على الغيب، وعرف أنه بعد ما يقارب الأربعين يوما سيكون الثوار، في «الأقصر»، في حالة اشتباك عنيف

مع قوات الأمن المركزي التي أحاطت بمبنى المحافظة، وأنهم سيحاولون حرق استراحته، وأن أهل «الأقصر» سوف ينتفضون عليه، بصفة شخصية، بسبب مظالمه التي دهستهم في سبيل إنجاح خطته الهادفة لتطوير المدينة كي تصبح، فقط، قبلة السياح دون الاهتمام بأحوال أهلها.

بل سيتطور الأمر، بعد ذلك بأشهر قليلة، لتتم محاكمته في إحدى قضايا الفساد الشهيرة بالمدينة.

قضيت نهار 27 يناير 2011م كالمعتاد، فيما بين أعمالي و عيالي، لم يكن هناك ما ينذر بالزلزال الذي سيقع بعد صلاة «الجمعة» من الغد، كنت أتابع ما يجري في «السويس» من مظاهرات، لكن الأمر بالنسبة لي كان شبيها بما جرى من أحداث في مدينة «المحلة» قبل حوالي سنتين من هذا التاريخ، وكنت أتابع اضطرابات «القاهرة» فأراها شبيهة بما هو جار فيها من حراك سياسي عنيف، مستمر منذ أكثر من سنتين، لا يتمخض عن شيء فعلي، الذي يحدث إذن ليس أكثر من استمرار حالة اضطرابات تنتاب «مصر» منذ فترة.

وفي الليل، وبعد أن صليت العشاء، ذهبت كالمعتاد لقضاء بعض الوقت مع صديقي الشاعر «حسين القباحي»، في دكانه الذي يبيع فيه الأدوات المكتبية، والهدايا، ولعب الأطفال، وكان يجلس معه ابن أخت له اسمه «عبد الله»؛ كان ما يجري في «القاهرة»، و«السويس»، محور حديثنا، قلت إن الأمر يحتاج لثورة في كل بلاد «مصر»، لا في مدينة أو مدينتين. وقال «حسين القباحي» إنه في يوم ما ستجتاح الثورة كل بلاد «مصر». لكن «عبد الله» قال: غدا ستخرج مظاهرة من مسجد «صلاح الدين».

مـا قاله «عبد الله» كان مفاجئا تماما، ومدهشـا جـدا، حتى أنني، ولأول وهلـة، لـم أصدق، وقلـت لـ«عبد اللـه»: أتتكلم جـادا؟! أهنـاك مظاهرات ستخرج غدا في «الأقصر» ؟!

قـال «عبـد اللـه»: نعـم.. هنـاك مظاهـرة سـتخرج من مسـجد «صلاح الدين».. وأنا خارج فيها.

قلت: وأنا سأصلي الجمعة في مسجد «صلاح الدين».

تركت «حسين القباحي»، وذهبت إلى البيت، وحول طعام العشاء جلست مـع زوجتـي وأولادي الثلاثـة، كنا نشـاهد التلفـاز ونحن نـأكل، والقنوات الفضائيـة، الإخباريـة، تعـرض ما يحدث فـي «السـويس»، و«القاهرة»، من اضطرابات.

قلت: غدا ستخرج مظاهرات في «الأقصر».

هتف «محمد»، أكبر ابنائي: والله يا بابا!؟ من أين ستخرج؟!

قلت: من مسجد «صلاح الدين».

«محمـد» فتـى يافع، عمره يقترب من السادسـة عشـرة، هتف بحماسـة أكبر: أنا سأخرج في هذه المظاهرة.

«حنـان»، أم «محمد»، كانـت قد رأت الناس الذين قتلـوا في مظاهرات «تونس» فصرخت في وجه ولدها: إياك تخرج في مظاهرات.

ثم زغرت لي بعينيها وقالت: وانت كمان إياك تخرج في مظاهرات.

ازدردت اللقمة التي كنت آكلها وقلت: إن وجدت مظاهرة سأخرج فيها ولو انقلبت السماء على الأرض.. و«محمد» أيضا.

ارتخـى صوت «حنـان» أمام إصراري، وإن كان قـد حمل نبرة اعتراض قوية وهي تقول: طيب اخرج انت.. لكن الولد لأ .

ضحكتُ، وقلت: إذن أنا لستَ مهما.

قالـت: أنت تسـتطيع التصرف مع ما سـيجري بحكمـة.. لكن «محمد» طائش، وقد يرمي نفسه في مهالك المظاهرة.

قلت: أقصى ما سـيحدث لـ«محمد» هـو الموت، وإن حدث فهل هناك أجمل من أن يموت ولدي شهيدا في سبيل الحرية والكرامة؟!

وقلت، بينما دموع خفيفة طَلَت مقلتي «حنان»: لكن إن عاش.. ونجحت المظاهـرة.. وانقلـب الأمر إلى ثورة.. ونجحت الثورة.. فسيظل عمره كله يفخر بنفسـه.. سـيحكي في مجالس السمر مع أقرانه عنها.. وسيحكي عنها مع أولاده.. عندما تصير «مصر» أجمل بلاد الله سيكون بمقدوره أن يستلقي على قفاه، وهو غارق في الضحك، ويقول أنا من جعلت «مصر» أجمل.

قلـت لأم «محمـد»: هـاه.. هـل مازلـت تريديـن حرمانـه مـن كل هذا الشرف؟!

هـذه جمعة الغضـب، وما إن قال إمام مسـجد «صلاح الدين»: السـلام عليكـم.. السـلام عليكم. منهيا صـلاة الجمعة، حتى هـبّ أغلب المصلين إلى خارج المسـجد، وبالفعل كانت هناك مظاهـرة، ناس يزيد عددهم على الألـف، تحركـوا من أمام المسـجد إلى شـارع «التليفزيون»، وهـو من أكبر شوارع «الأقصر»، يسيرون بسرعة وكأنهم يشيعون ميتا جثته منتنة.

والهتاف الوحيد هو: « الشعب يريد.. إسقاط النظام».

ومع كل متر، تقطعه المظاهرة، كان العشرات من الناس ينضمون إليها، كنت أهتف بأعلى صوتي، لكن أين صوتي؟! من يجاورونني في المسيرة كانوا أيضا يهتفون بأعلى أصواتهم، عروق رقابهم النافرة تؤكد هذا، لكن أين أصواتهم؟!

ثمة صوت واحد يرعد، صوت خارق، صوت جبار، فلق جدران الصمت، وخرج يمزق سنين الذل والمهانة: «الشعب يريد.. إسقاط النظام».

أصواتنا كآحاد انمحت، وتجلى هذا الصوت المهيب لكائن بالغ الضخامة، والعِظَم، يمتد متماهيا في كل بر «مصر» اسمه «الشعب».

أنظر إلى الناس حولي، ليست هذه وجوه أهل «الأقصر» التي أعرفها، الوجوه المخادعة، التي تتلون بحسب ألوان أوراق العملة الصعبة، الوجوه المستكينة لأي قهر طالما أنها توهب أي نوع من أنواع الحياة، و لو كان رديئا، الوجوه التي أراها حولي يكاد الدم يتفجر من عروقها، ولا يكاد الدم يتفجر من العروق إلا بدفع قلب قوي، ولا تقوى القلوب إلا عندما تبرأ من الخوف، والناس ملأوا الشوارع يهتفون: «ارحل.. ارحل.. ارحل».

أي غضب هذا الذي جعلني أطيح بذراعي في الهواء، بقبضة مضمومة، وأزعق بأعلى صوتي: «باااطل».

كان هناك شاب محمولا على كتفي آخر يهتف: «حسني مبارك».

ونحن نردد خلفه: «باطل».

«جمال مبارك»... «باااطل».

«الحزب الوطني»... «باااطل».

كنت حريصا على أن أتابع نمو المظاهرة، وكانت في منتصف شارع «التليفزيون» قد جاوز عدد المشاركين فيها الخمسة آلاف، و أثلج هذا قلبي قليلا، فـ «الأقصر» مدينة ذات طابع خاص في كل شيء، وأكثر خصوصية فيما يخص طبائع أهلها، فهم يعيشون على السياحة، فيكرهون كل ما قد يكون سببا في زعزعة استقرار أكل عيشهم، وهذه المظاهرات ستكون بالتأكيد عامل قلق للسياح، وسيتهدد المستقبل، ولقد اعتقدت، طويلا، أن أهل «الأقصر»، بالذات، لن يتظاهروا إلا انتصارا لقضية سياحية، ومن هنا كانت دهشتي، وحرصي على أن أتابع نمو المظاهرة، ومن حين لآخر كنت أرى ابني «محمد» بين المتظاهرين، وكنت أنظر إلى وجهه فأحمد الله على أني لم أحرمه هذه السعادة الغامرة التي غطته، لكني، في كل مرة كنت ألمحه فيها، أسأل نفسي: هل ستتجه المظاهرة إلى منطقة مجنونة بالعنف والمواجهات مع الشرطة والأمن المركزي؟

وأسأل نفسي: هل من الممكن أن يصيب مكروه ابني الذي سررت به، ابني البكر، ابني الذي قارب طوله طولي، واشتد ساعده، واقترب من أن يكون متكئي؟

رفعت وجهي إلى أعلى ونظرت إلى العمائر التي اصطفت على جانبي الشارع المتسع، كانت البلكونات ممتلئة بالناس الذين يلوحون بأيديهم، ويلوحون بالأعلام، وكذلك كانت أسطح العمائر، قلت لنفسي: لو حدث مكروه لـ«محمد» ستموت أمه.

علا صراخ الناس: يا «مبارك» يا جبان.. يا عميل الأمريكان.

هـذه المقطوعة مـن الهتاف هي التـي ضعضعت روحي.. «يـا مبارك يا جبان.. يا عميل الأمريكان».....

«مبـارك» الذي قاد السـلاح الجـوي، في ملحمة أسـطورية صنعت عزة «مصر» ومجدها الحاضر.

«مبارك» الذي تولى رئاسـة «مصر» وقد انقطعت علاقاتها بأغلب الدول العربية فأعاد كل هذه العلاقات.

«مبـارك» الذي رفع علم «مصر» على آخـر قطعة من أرضها عادت إليها في عهده، أقصد «طابا».

إنجازات ضخمة للرجل، فما الذي حوله إلى عميل أمريكي؟!

ما الذي وضعه من بعد رفعة وأذله من بعد عز؟!

ما الذي حضه على أن يفتح بوابة ضرب «العراق»؟!

ما الذي جعله يرى دماء أطفالنا في «لبنان»، و«فلسطين»، وفي كل مكان عربي، أو مسلم، ثم لا يحرك ساكنا؟!

ثـم ما الذي دفع به كي يشـارك في إراقة دمـاء أطفالنا، وأهلنا في «غزة»، لما سـمح لـ«إسـرائيل» بكل قوتها العسكرية أن تضرب «غزة» لثلاثين يوما متصلة؟! «غزة» التي أهلكها حصاره هو نفسه لها؟

إذن يسـتحق «مبـارك» هذا الهتـاف الذي انطلق هادرا: يـا «جمال» قول لأبوك.. الصعايدة بيكرهوك.

المظاهرة احتشـدت تماما، وأكثر من عشرة آلاف متظاهر يسيرون حثيثا إلى اتجاه يبدو لمنظميها معلوما تماما، انتشـيت من ضخامة العدد فتذكرت «القباحي»، طلبته على هاتفي النقال فجاءني صوته نشيطا: أين أنت؟

قلت: أنا في المظاهرة.. و أين أنت؟

قـال: أنـا في البيت.. المظاهرات في كل بلاد «مصـر».. وأنا أتابعها عبر «التلفاز».

كان الصوت غير مسـموع بسـبب الهتافات، وكنت في نفسـي أقول: أن تشارك في صنع الثورة أفضل جدا من أن تتابعها عبر «التلفاز»!

لـم تكـن المظاهرة قد عبـرت، حتى هذه اللحظـة، أي تجمع أمني، ولم نلحظ وجود أي شـرطي في أي مكان، حتى عساكر المرور اختفوا، لكن ها نحن نتجه إلى مبنى مديرية الأمن في شـارع «المدينة المنورة»، وأحسسـت بخطـى الناس تتسـارع، وعيونهم تجحـظ نحو المبنى المهيـب، وكأنهم قد قرروا، بدون سـابق اتفاق، أن يقتصوا لأنفسهم من هذا المبنى، وارتفع وقع الهتاف إلى غاية المنتهى: الشعب يريد.. إسقاط النظام.

ورأيت «محمد»، من بعيد، يهتف مع الهاتفين، ورأيت مبنى مديرية الأمن يقترب، ورأيت خطرا يدنو، ورأيت كأن «محمد» قد اخترقت رأسه رصاصة غادرة، وسـقط بين الأقدام «لا.. لا.. يكفي أن أسـير أنا في المظاهرة.. على الأقل لو مت سـأعرف لمـاذا مت.. لكن محمد لا يـزال صغيرا.. لعله الآن يمشي وهو لا يفهم ما الذي يجري بالضبط.. لعله يظنها مظاهرة كتلك التي ملأت الشـوارع لما فاز فريق الكرة بكأس إفريقيا.. فهل أتركه يموت ويفقد

روحـه لأمـر ربما لا يفهمه جيدا؟ يجب أن يعود محمد إلى البيت، يجب أن يعود فورا».

كان «محمد» قد غاب عن ناظري، فأخرجت هاتفي النقال و طلبته، رد: نعم يا بابا.

ـ يا «محمد».. خلِّي بالك من نفسك.

وأغلقت الخط.

«نحن الشعراء.. أفراس خضراء..»... ثم هذه الأفراس تتحرك فقط على الأوراق، هذا ما رسخ في ذهني من قصيدة جميلة لـ «فتحي عبد السميع».

والشـعراء أدباء، والشـعراء، في القـرآن، في كل واد يهيمـون، ثم الأهم أنهـم يقولون ما لا يفعلون، ولا يتحدث عـن المثل والفضائل أحد، بقدر ما يتحـدث عنها الأدبـاء، وعند الجد تبدو الحقائق المخزيـة، ها أنا الذي أملأ الدنيـا صراخـا بأنه لن نتحصل على أي شـيء جميـل إلا بالتضحيات كدت أضـن بولـدي، كادت تغلبنـي أبوتي، ونسـيت أننـي أديب، رائـد القوم إلى أبـواب الحضارات، الذي ينغرس الشـوك في قدميه فـلا يمنعه من مواصلة الطريـق، معلما النـاس أن الآلام لا يجب أن تكون معوقـة، أنا أديب، وهذه منزلـة أرفـع ممـا يظنـون، وحتـى أبقى هنـاك لابد مـن التضحيـة، وإذا كان «محمد» لا يفهم ما يفعله، الآن، ومات، فيوما ما يمكن أن أجلس على قبره، وأشرح له لماذا مات.

لماذا غلبتني الدموع، وملأت عيني؟

هل لأني، في هذه اللحظة، أرى ما لـم أتخيل يوما أن أراه؟

فالنـاس يلقون مبنـى مديرية الظلـم، والقهر، بالحجارة، وهـم يهتفون: حرية.. حرية.. حرية.

أم لأني تخيلت ابني البكري، وقد فارقته الحياة؟

في هذا الزخم اشتاقت نفسي إليه، وتمنيت لو أراه، حتى أنظر إليه جيدا، وأملأ عيني بملامح وجهه، أين هو؟

الحجارة تمطر مديرية الأمن، وأنا أبحث عن «محمد».

يهيأ لي أني، طوال خمسة عشر عاما أو يزيد قليلا، لم أحفظ تماما ملامح وجهـه، حتى ابني الثانـي «مصطفى»، وكذلك «عبد الله»، لكن «محمد» من يلح علي الآن، لأنه هو الذي يواجه الخطر، ثم أين أدباء «الأقصر»؟

بحثت جيدا، لا أحد، سـوى أديب شـاب اسمه «شـعبان القاص»، يشق طريقـه نحو كتابـة القصة، وكان على ما بدا لي أحـد منظمي هذه المظاهرة، وكان «القاص» من الإخوان المسلمين.

لم ينصرف الناس، عن مبنى مديرية الأمن، إلا عندما علا هتاف منظمي المظاهرة: سلمية.. سلمية.. سلمية.

وما هي إلا بضع عشـرات من الأمتار حتى تكرر ما حدث لمبنى مديرية الأمن مع مبنى مركز الشـرطة، وتحطم زجاج بعض سيارات الشرطة، وعلا أيضا هتاف: سلمية.. سلمية.

وانصرفـت المظاهرة لتكمل طريقها، وكان طريقها يقطع منطقة غاية في الأهمية بالنسبة لـ«الأقصر»، شارع «خالد بن الوليد»، الشارع المكتظ بأهم

الفنادق وأكبرها، وفيه فندق «إيزيس»، الذي كان «حسني مبارك» يفضل النزول فيه عند زيارته للمدينة.

كان السائحون قد ملأوا شرفات الفنادق، يصورون بكاميراتهم، وبأجهزة المحمول، الذي يجري أمامهم، يملكون من الثقافة، والوعي، ما يجعلهم يدركون أن ما يجري أمامهم هو حدث تاريخي بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وأنه لايجب أن يمرّ دون تسجيل، ليفخروا هناك، في أوروبا، أو أي بلد في العالم، بأنهم عايشوا هذا الحدث، وأنهم كانوا جزءا من الصورة، ولو كمتفرجين.

وعندما مرت المظاهرة بين الفنادق علا الهتاف: فريدم.. فريدم. موباراك.. جو.. جو.

تفاعل الأجانب مع المتظاهرين، وأخذوا يشيرون إليهم بعلامة النصر ويضحكون، وكأن منظمي المظاهرة قد خافوا أن يعتدي المتظاهرون على فندق «إيزيس»، الذي كان «مبارك» يفضله، ويقال إن هناك مشاركة في رأس مال هذا الفندق بين «جمال مبارك» و«محمد العزب» رئيس مجلس إدارة فنادق «إيزيس»، فأخذوا يهتفون: سلمية.. سلمية.

وبالفعل لم يتم الاعتداء على أي فندق، لكن المظاهرة كانت قد وصلت إلى مجمع المحاكم، فأخذ البعض يقذفون المبنى بالطوب، في رمزية إلى فساد القضاء في عهد «مبارك»، فأصيب زجاج إحدى سيارات المجمع، لتعلو من جديد صيحات:سلمية.. سلمية.

لكن أين «محمد»؟!

كان قد مضى وقت طويل دون أن أراه، طلبته على هاتفي فلم يرد، وخفق قلبي، وعندما علا رنين هاتفي رفعته إلى أذني متلهفا لسماع صوت «محمد»، لكن كان «القباحي» هو المتصل: ما الأخبار عندك؟

قلت: جميلة جدا.. المظاهرة كبيرة.

قال: كم عدد المتظاهرين تقريبا؟

قلت: يفوق الثمانية آلاف.. ربما عشرة.

قال مندهشا: معقول؟!

قلت: نعم.

قال: أين أنتم الآن؟

قلت: على «الكورنيش».. نحن متوجهون إلى مبنى المحافظة.

كانت قد تراءت لي أعداد غفيرة من الأمن المركزي تسد الطريق إلى المحافظة، كانت هذه أول مرة نرى عساكر الأمن المركزي منذ بدأت المظاهرة في التحرك.

كان هدف المظاهرة الوقوف أمام مبنى المحافظة، بصفته المبنى الذي يمثل سلطة النظام في «الأقصر»، وإعلان الرغبة في إسقاط هذا النظام من هناك، لكن بظهور هذا السياج الأمني الكثيف، تأكد للمتظاهرين أنهم سوف يُمنعون من تنفيذ هذه الرغبة، فبدأ المتظاهرون بإلقاء الحجارة على عساكر الأمن المركزي، كان يمكن لهؤلاء العساكر ألا يحركوا ساكنا، فالحجارة لن تؤذيهم وقد تدرعوا بدروع تحميهم تماما، لكن فوجئ المتظاهرون

بالقنابل المسيلة للدموع تنطلق كالمطر، وفوجئت بـ «محمد»، وهو في الصف الأمامي بمواجهة العساكر، يقذفهم بالحجارة، ناديت عليه وقد انخلع قلبي تماما، لكنه لم يسمعني، المشكلة أن الخطر لم يكن يواجهه من ناحية العسكر فقط، وإنما كان يحدق به من الخلف أيضا، من المتظاهرين أنفسهم، الذين كانوا يقذفون الطوب بغزارة، ومن الحجارة ما كان عزمه ضعيفا، لا يصل إلى العساكر، وإنما يسقط فوق متظاهري الواجهة.

اندفعت نحو «محمد» فرآني، صرخ ناحيتي: ابتعد يا بابا.

رائحة الدخان المسيل للدموع لا تطاق، صرخت فيه: ابتعد أنت.. هيا ابتعد فورا.

عاد إلى الخلف متذمرا، وصارت هناك مسافة واسعة بين المتظاهرين والشرطة، لكن الرشق المتبادل، بالطوب والقنابل المسيلة للدموع، اشتد، وضاعت بين أصوات السعال، وأصوات فحيح القنابل وهي تتلوى على الأرض بينما تنفث بقوة سمها الدخاني الأبيض، أصوات تزعق: سلمية.. سلمية.

في هذا الطقس الحربي نجح بعض العقلاء في إقناع قادة العساكر ألا يطلقوا القنابل المسيلة للدموع، فعاد المتظاهرون، و بينهم أنا، إلى الاقتراب من العساكر في محاولة لإقناعهم بإفساح الطريق لنا، ولما لم تفلح المحاولات دفع المتظاهرون بأجسادهم صف العساكر، وعندما كدنا أن نخترقه انطلقت القنابل مرة أخرى، وإذا بأحدهم يرش في وجهي دخانا أحمر من علبة تشبه علبة اسبراي الألوان، وإذا بي أشعر بنار تتأجج

في صدري، وبينما كان نفسي ينقطع اصطدمت بقدمي قنبلة الدخان المسيل للدموع، واختنقت تماما.

أين «محمد»؟

أخذت أبحث عن هواء أتنفسه، لكن لم يكن هناك هواء، كانت هناك نيران تخترق أنفي، وسمعت أذان العصر: الله أكبر.. الله أكبر.

ووجدت رصيفا، ووجدت شمة هواء، وأخذت أسعل وشلال دموع ينهمر من عيني، لكن أين «محمد»؟

مظاهرات جمعة الغضب كانت هي المظاهرات الحاسمة، فبعدها صار النظام كشجرة تم فصلها عن جذورها، هبة ريح لا أكثر سوف تسقطها، وهذا ما حدث، جاءت جمعة الرحيل، ثم جمعة التحدي، ثم جمعة الصمود، شاركت في كل هذه المظاهرات، و كان معي «محمد»، وفي إحدى هذه «الجُمع» كان معي أبي، الذي بلغ من العمر نيفا وسبعين، وشارك أخيرا بعض من أدباء «الأقصر»، «حسين القباحي»، و «مأمون الحجاجي»، و«محمد جاد المولى»، و«حشمت يوسف»، كما شارك السلفيون، و كانت هذه عجيبة من العجائب، فأنا أعرف أنه، بالنسبة للمنهج السلفي، المظاهرات والخروج على الحاكم حرام، لكنني رأيت صديقي «علي هريدي»، وهو طبيب جراح، وسلفي، في قلب المظاهرات، يوزع موزا على المتظاهرين، فهل صارت المظاهرات، بما تحمله من معنى الخروج على الحاكم، حلالا؟!

ثم سمعت بعد ذلك أن كبار مشايخ السلفية يحللون المشاركة في انتخابات «مجلس الشعب»! وقد كانوا يحرمونها من قبل.

وسألت نفسي: أي حرام سوف يأتي عليه الدور ويُستحل ؟!

وسقط رأس النظام .

في جمعة النصر، في المساء، جلست مع أسرتي، نظرت إلى «محمد»، وكان قد سرق مني نقودا ذات يوم.

– هل تسرق بعد اليوم؟

بدا محرجا، لكنه هز رأسه بالنفي، وقال: لن أسرق بعد اليوم.

وكان قد كذب عليَّ مرات.

– هل تكذب بعد اليوم؟

احمرّ وجهه خجلا، لكنه هز رأسه بالنفي، وقال: لن أكذب بعد اليوم.

ضحكت، وقلت: وهل ستلوّث ماء النهر؟

اندهشت «حنان»، وقالت: ماء النهر؟!

غرقت في الضحك، وقد بدا «محمد»، مثل أمه، غير فاهم، لكني نظرت في عينيه طويلا، ثم سألته: لماذا شاركت في الثورة يا «محمد»؟

ابتسم «محمد» ابتسامة الحائر.

قلت، وأنا أتهيأ للتمدد على الكنبة، أمام «التليفزيون»: قل: كي أكون إنسانا أجمل.

«الأقصر» 2011م

السلخانة في حديقة الزهور

كنت قد أنهيت دراستي بعد الثانوية العامة في معهد إعداد الفنيين بـ«القاهرة»، وعدت إلى «الأقصر»، عمري فوق العشرين، أصحابي في بنت «المعز»، ولا أصحاب لي في «طيبة». فكانت الوحدة. والوحدة منشأ الإبداع.

وذات ليلة جلست في حديقة «أبو الحجاج»، على إحدى الأرائك الحجرية، أنظر إلى الناس، وأعمدة معبد «آمون» المهولة، ومسجد «أبو الحجاج» الأسطوري. وكان هناك من ينظر إليَّ.

رجل في ثمانينيات عمره تقريبا، وسيم، ممتلئ، يرتدي جلبابا فخما، كان مهتما، على ما بدا لي، بأن يراقبني، وكنت أرمقه بنظراتي السريعة، ثم أشيح بوجهي عنه.

لكنه أشار إليَّ بالاقتراب، فاقتربت.

صافحته، قال: اجلس. فجلست، سألني عن سبب جلوسي وحيدا وأنا في سن الشباب الذي يبتهج بالأصحاب. أوضحت له الأمر. فسألني إن كان لي في الكتابة.

كنت، مثل كل الشباب، أكتب قصائد حب، وغزل في البنات، ومرات كتبت قصصا.

قلت له إنني أكتب قصصا. فقال تعال إلى نادي الأدب، وشارك معنا. وقال: أنا «محمود منصور» رئيس النادي.

الذبح.

ما جرى، في نادي الأدب، كان ذبحا.

كنت أقرأ قصصي فلا أسمع إلا صوت سَنِّ السكاكين، ولا أرى إلا مساحي الدفن، لكني كنت مصرا على الكتابة، فكنت أكتب، وأذهب إلى سلخانة «الثلاثاء»، المسماة بـ«نادي الأدب»، باسطا رقبتي لسكاكينهم، وكانت رقبتي عصية، وأياديهم ضعيفة.

وفي يوم، قبل ميعاد النادي الأسبوعي، وقفت على كورنيش «النيل»، ومعي صديقي الجميل «محمد عوض أبو دوح»، وكان يكتب الشعر العامي والزجل، ممن تعرضوا للذبح.

كانت الشمس تغرب، ولون الشفق يرتع في الأفق، فقال «أبو دوح»: الشمس مذبوحة.. ودمها تناثر حولها.

قلت: الشمس متوهجة.. وفستانها برتقالي.

وأفل «أبو دوح» بعدها، ولم يسطع نجمه أبدا.

لماذا أتذكر هذه البدايات الآن؟ هل لأني، أخيرا، وبعد توقف دام لقرابة عشر سنين عن الكتابة، كتبت القصة القصيرة الأولى لي بعد العودة؟

أم لأنها بداية جديدة، ونفس السكاكين؟

لكنها والله نفس الرقبة، ونفسها أياديهم الضعيفة.

لماذا لم يتصدر الأدباء المشهد الثوري في جمعة الغضب؟

سؤال صعب، وإجابته سهلة جدا.

لأن الأدباء انفصلوا عن ذواتهم، فهم أروع من يكتبون عن القيم العليا، وفي نفس الوقت هم أبعد الناس عن ممارستها، يصرخون، على الأوراق، مطالبين بالحرية، ثم يجدّون في طلب كل ما يكبلهم ويستعبدهم، ابتداءً من السعي لوظائف الدولة، ومرورا بنشاطهم الحميم، في الانضمام لتشكيلات أدبية، تحت إشراف مؤسسات الدولة أيضا، وانتهاءً باستسلامهم لخوف قاهر من ضياع ما يرونه مكتسبات في مستقبل الأيام.

أيام الاحتلال الإنجليزي لـ«مصر»، كان الثوار هم الشباب، وأهل الحرف، والتجار، والفلاحون. الموظفون امتنعوا، ويكاد يكون السبب هو نفسه الذي منع ظهور الأدباء في جمعة الغضب، الارتباط بمؤسسات الدولة التي يمكنها المنح، وأيضا المنع.

ربما هناك ما هو أفظع، وهو إمكانية تعامل الأديب مع «المحتل»، أو مع الحكومة التي ينصِّبها المحتل.

أعرف أدباء سافروا إلى «العراق» للمشاركة في مؤتمر أدبي نظمته حكومة تشكلت على عين «أمريكا»!

أي هدف سام هذا الذي يدفع مثل هذا الأديب للمشاركة في فعالية هي، سياسيا، من قبيل غسل الأموال في عالم الجرائم؟

وعندما سألت أحدهم كانت إجابته: التفاعل مع الشعب العراقي الشقيق.

هذه بجاحة، ليس لأنه سافر، وهبط، في مطار تحرسه قوات أمريكية، فهذه خيانة، وإنما البجاحة لكونه اعتقد أنني أحمق، وسأصدق كلامه.

الأدباء ليسوا صادقين، إنهم يتحدثون كثيرا عن أشياء كبيرة، ويتكالبون على أشياء صغيرة، يمجدون الترفع، والتسامي، ويتصارعون على رئاسة نادي أدب، أو عضوية مجلس إدارة تجمع أدبي ما، ثم يكرهون بعضهم، ليكون التشرذم، والانشقاق، وكل هذا من أجل الأشياء الصغيرة.

لقد كان، يوما ما، الهدف النبيل للأديب إصدار ديوان شعري، أو مجموعة قصصية، أو رواية تحمل رسالته للقراء، ويعتز بها اعتزاز الأنبياء بكتبهم الإلهية، الآن يصدر الأديب كتابه ليكون مسوغا لحصوله على عضوية عاملة في نادي أدب، أو في اتحاد الكتاب.

والحقيقة أن الأديب في أصله ليس هكذا، إنه الإنسان الأسمى، بعد الأنبياء، هذه الطائفة من البشر التي همها الكبير هو تعبيد الطريق للإنسان، وتجهيزه لرحلة الحياة. قضية أزلية، أبدية، مهولة، وحملها يمكن أن يكلف قطعَ رؤوس، وسفكَ دماء، ومعتقلات، ثمنا باهظا لكن السلعة تستحق، والذي يدفع هو الأديب النبي، والذي لا يريد أن يدفع فهو كالأنبياء الكذبة، يزعق بالتعاليم في حضرة العبيد من أجل متع شخصية.

مرحبا بالثورة، التي شاركتُ في كل جُمعاتها ومعي ولدي البكر، لقد أسقَطَت ديكتاتورا، لكنها لم تضمن لي عدم ظهور ديكتاتور آخر، لذلك

على الأدباء أن يستيقظوا، ويفهموا مهمتهم الحقيقية. امنعوا ظهور ديكتاتور جديد.

وإذا لم يفهم الأدباء لماذا أعطاهم الله حكمة الأنبياء، فستكون النتيجة كما هي متحصلة الآن: شعرا فارغا، وسردا متهالكا عقيما.

ستكون النتيجة: الممثل بالملايين، ولاعب الكرة بالملايين، والراقصات بمئات الألوف، والأديب بملاليم.

ستكون النتيجة واقعا اجتماعيا متأزما، ولو قامت مائة ألف ثورة.

انظر إلى غرب «مصر» فأرى جزءا آخر من وطني العربي الكبير، ووطني الإسلامي الأكبر، اسمه «ليبيا»، وأرى على أرضه أحداثا تجري، رُسمت سيناريوهاتها في «أوروبا»، و«أمريكا».

الهدف الغربي يتضح مع مرور الزمن، إنه تقسيم «ليبيا».

لو أرادوا «ليبيا» موحدة لتعاملوا مع الأمر بحسم، ولأخرجوا «القذافي»، أو لقبضوا عليه بعملية من نوعية القبض على «نوريجا»، ولتركوا «ليبيا» بعد ذلك للثوار يصنعون مستقبلها، موحدة ومستقرة. إن الحلف الغربي قادر على ذلك، ولكن.

لابد من تقسيم «ليبيا»، كما حدث في «السودان»، وكما يراد لـ «مصر» العصية.

والخطة واضحة، وسهلة، بالنسبة لدول عاشت استعمارية، وتحنّ لماضيها، وترى المستقبل في إضعاف كل ما يحيط بـ «إسرائيل»، حتى ولو كان بعيدا عنها بُعد «ليبيا»، فما هي الخطة؟

إطالـة أمد الحرب بين قوات «القذافي»، والثوار، حتى يعتاد العالم على ليبيا شرقية، يحكمها مجلس ما، بقيادة «ثورجي» ما، و«ليبيا» غربية، يحكمها «القذافي» ثورة ثورة، ويجب الحفاظ على التوازن بين القوتين، فإذا ما طال أمـد الحرب لا يكون هنـاك إلا الحل الإجباري: دولتان فـي «ليبيا»، واحدة للثوار، وواحدة للقذافي.

ودولة الثوار هي التي سـتكون موطئ قدم «أمريكا»، حليف «إسرائيل»، دولة الثوار هذه هي التي ستتاخم طول حدودنا الغربية.

الخطة محكمة، وناجحة، بشرط أن تستوي على نار هادئة.

والأفاعي تصبر جدا.

والأدباء والمثقفون في كل واد يهيمون، إلا وادي «ليبيا».

ويمكننا أن نضيف إليها «اليمن»، و«سوريا».

هناك ثلاثة أنواع من الأدباء أعضاء اتحاد كتاب «مصر»: منتفعون كبار.. وهـؤلاء هم مجلـس إدارة الاتحـاد بأكمله، لا أسـتثني منهم أحـدا. وهناك الطفيليـون.. وهؤلاء هم الفئـة اللصيقة بأعضاء مجلس الإدارة، يمسـحون الجـوخ ليأكلوا الخـوخ. ثم بقية أفراد الجمعية العموميـة.. الذين رضوا من الكعكـة بـأن يتباهـوا بعضويتهـم في اتحـاد الكتاب علـى أغلفـة كتبهم، أو مقالاتهم الصحفية، ثم إذا أحسـوا بالضيم يلسـعهم، حلمـوا بمجلس إدارة جديد يرفـع عنهم الظلم، ويقيم العدل، فيدلـون بأصواتهم في الانتخابات، ويفـوز مجلـس إدارة جديـد، مجلـس يعلم كلمة السـر التي تفتـح المغارة، «افتح يا سمسم»، وعندما يدخلون الإدارة يهتفون بانبهار: « دهب .. لولي.. مرجـان». وآخـرون يبهرهم منظـر الكعكة الكبيـرة، ثم يظهـر الزعيم الذي سـيمنحهم المكتسـبات، في مقابل أن يظل زعيما، حتى ولو أن لهذا الزعيم مـن المواقف مـا هو مخزٍ، حتى لو كان الخزي سـببه التعامـل مع الجبابرة، المتحكميـن فـي أرزاق البـلاد، والعباد، من أجـل اليوروهـات، أو تحييده للاتحـاد كـي يصبح خـارج حدود الثـورة، وفي نفس الوقـت يكون في لب الثورة! بوقفة عنترية، للسادة الأعضاء، تأييدا للثورة داخل أسوار الاتحاد!

ألعاب سياسية، سمجة، يلعبها أعضاء مجلس إدارة اتحاد كتاب «مصر» للحفاظ على الدهب، واللولي، والمرجان، وعلى الكعكة أيضا.

وطالمـا بقية أعضـاء الجمعية العمومية كلهم قناعة بـأن مجرد اتصافهم بأنهـم أعضـاء فـي اتحاد كتاب «مصـر» هو الشـرف الذي لا يدانيه شـرف، وطالما العضو المنتخب لمجلس الإدارة، بمجرد تسلمه لهذا العمل، ينسى الشرف، ولا يبقى له من هم سوى البحث عن أجولة يعبئ فيها المكتسبات، أو يبدأ في تصفية الحسابات، أو يبدأ في ممارسة سياسة المنح، والمنع، مع من يتفق معه، أو ضد من يخالفه، فلن يكون التعافي قريبا.

إن مجلس إدارة اتحاد كتاب «مصر» الموجود الآن، وإن كان قد تشـكل بعـد الثورة، إلا أن غالب أعضائه، إن لم يكن جميعهم، هم أفراد تعاملوا مع النظام السابق بحميمية، ومنهم من كانوا أعضاءً في الحزب الوطني المنحل، والأدهى أن عمومهم لم يخرجوا في مظاهرات جمعة الغضب، والأنكى أن فيهم من وصف الثوار بأنهم مجموعة من الرعاع والهمج!

مجلس إدارة مثل هذا يجب أن يزال.

فهو عار على كتاب «مصر».

وإلا فإن كُتاب «مصر» عارٌ على «مصر».

وياله من عار ممتد.

عشر سنين من التوقف عن الكتابة، والبعد عن الواقع الأدبي، كانت ثمنا باهظا، دفعته راضيا من أجل أن يكون إبداعي صادقا، فليس بمقدوري أن أرى الدم يسيل أنهارا في «فلسطين» ولا أحاول صنع ثورة، وليس بمقدوري أن أرى الراقصات يتفاعلن مع ما يجري هناك ولا أحاول صنع ثورة، وليس بمقدوري أن أرى العالم تموج مدنه الكبرى، والصغرى، بالمظاهرات من أجل «محمد الدرة» ولا أحاول صنع ثورة.

وحاولت صنع ثورة صغيرة في «الأقصر»، كانت وجهة نظري، وقتها، أن ليس أقدر من الأدباء على صناعة الثورات، فهم المثقفون الذين يحيون من أجل القضايا الكبرى، وهم من يملكون ثمنها، وهم الذين يعرفون أنهم الرواد على طرق البحث عن الكرامة، وهم المحاربون من أجل الإنسان، ولما لم أجد إلا الرعب في قلوبهم، والمداهنة في عقولهم، والخواء في أيديهم، وضعت اليافطات التي كنت أعددتها للمظاهرة في صندوق قمامة على جانب أحد الطرق، وقلت: هذا آخر عهدي بكم. لكني سمعت بعد ذلك عجبا.

قالوا: «الخمايسي» ترك الكتابة لأنه انضم إلى الجماعات الإسلامية التي ترى أن الكتابة حرام!

وقالوا: «الخمايسي» تبع إحدى الطرق الصوفية، وصار مريدا، وهو الآن يتتبع الموالد في بر «مصر»!

وقالوا: «الخمايسي»، عندما كان في «القاهرة»، وقع في غرام أديبة تكتب القصة مثله، وأن قصة الحب هذه انتهت بصدمة جعلته يكتئب، فاعتزل العالم، والكتابة!

وأنا قلت، منذ برهة، السبب الحقيقي وراء تركي للكتابة.

وعندما عدت لم تكن الثورة قد قامت بعد، فلماذا عدت؟

لأن ولدا شاعرا اسمه «شعبان البوقي» لقيني ذات مرة فقال لي: كنت أهم كاتب قصة قصيرة في «مصر» في جيل التسعينيات، نحن نتحدث عن كتاباتك في تجمعاتنا الأدبية حتى الآن.

قلت له: ذكرتني بكلام قاله لي الناقد «محمد محمود عبد الرازق»، يرحمه الله، في مؤتمر «الإسكندرية»، ولغرابته لم آخذه على محمل الجد، قال لي: أنت أفضل من كتب القصة القصيرة بعد «يوسف إدريس».

ويبدو أن الرجل كان مقتنعا بما قال، حتى أنه كتب دراسة عن مجموعتي القصصية «الجبريلية»، منشورة في مجلة «الثقافة الجديدة»، وذكر فيها: إن على نجع الخمايسة، الذي أنجب «الخمايسي»، أن يفخر كما يفخر نجع «البيروم» بإنجاب «يوسف إدريس».

قال «البوقي» إنه: لا يجب على المحترمين أن ينسحبوا.

ذكرني كلامه بما قالته لي الجميلة «أمينة زيدان»: إذا انسحب المحترمون من يبقى في الأرض؟

وتساءل «فهيم غازي عكاشة»، على صفحات «أخبار الأدب»: إن «الخمايسي» لم يفلس فلماذا يترك الساحة؟

وأثر فيّ كثيرا أنه قال: إن أسوأ أيام حياتي يوم علمت أن «الخمايسي» ترك الكتابة.

وقال «رضا العربي»: إن «الخمايسي» ترك الساحة وفي جعبته الكثير.

وكلام المحبين كثير.

ومن أجل هذا الحب عدت.

فكانت المكافأة هي أغلى حدث في حياتي، ثورة 25 «يناير».

ولقد اشتريت هذا الحدث بعشر سنين فقط من عمري، وياله من ثمن بخس لبضاعة لا يمكن تقديرها بثمن.

لماذا أكتب؟ أو بالأحرى لماذا نكتب؟ تلك هي الأزمة.

يقولون: نكتب لنبقى.. ويموتون رغم أنوفهم.

يقولون: نكتب لنفضفض.. الناس أيضا يريدون الفضفضة.

يقولون: نكتب لنستمتع.. يستمتعون برشق السكاكين ووخز الخناجر!؟

هناك شيء آخر يجب أن يكتب الأدباء من أجله، لم يعرفوه بعد، ولو عرفوه ما خلت مظاهرات جمعة الغضب منهم.

«الكلمة إيد.. الكلمة رِجل.. الكلمة باب».

أنا أديب أيها العالم، أديب عربي، أكتب حديقة واسعة مملوءة بالزهور لتعبق الأجواء بالروح المنعش، أكتب لتأتوا إليَّ يا من سكنتم المقابر، يا من زكمت أنوفكم رائحة الموتى العفنة، لتأتوا إليَّ يا من تعبرون أيامكم داخل عشش القمامة.

حديقتي تعبق بالروح المنعش، اَلقوا بأرواحكم وعقولكم فيها، واغتسلوا اغتسالا رائعا.

يا من تريدون الزرع والحصاد، عندي المحراث، وعندي بذور القمح، وعندي ينابيع الماء.

الكتابة ناسجة الأعشاش، والعش لحبيبين، وحبيبي في عشي أغازله.

الكتابة حب، والحب حياة، وفي الحياة قتل.

الكتابة فعل، إن لم يؤد إلى فعل فهي الموت، وأنا يا عالم أديب عربي، أعشق الحياة ولو خضبتها الدماء، وأكره الموت ولو في حديقة زهور.

«الأقصر» 2011م

الأقصر / القاهرة / الأقصر..
بـ "الموتوسيكل"

ربما كان سفري، بـ «الموتوسيكل»، من «الأقصر» إلى «القاهرة»، بالنسبة لأبي جنونا، بل الحقيقة أنه كان جنونا ليس بالنسبة لأبي فقط، وإنما لكل الناس، فما من أحد، علم برغبتي هذه، إلا وقال لي: هوّا انت مجنون؟!

كنت بدوري أسألهم: هو اللي يسافر «القاهرة» بـ «الموتوسيكل» مجنون؟!

فكانوا يضربون الأكف، ويزعقون: بـ «الموتوسيكل»؟ بـ «الموتوسيكل»؟! بـ «الموتوسيكل؟!!

لكن واحدا منهم قدم مبررا معقولا لاندهاشه: الأيام دي أيام ثورة وانفلات أمني.. ممكن يطلع عليك حد وياخد منك فلوسك وموتوسيكلك.

قلت له: إن شاء الله خير.

أنا أعرف أنه لن تكون معي أموال بالقدر الذي توحي به لفظة «أموال». لكن الموتوسيكل! فقلت في نفسي: إن شاء الله خير.

موتوسيكلي قوي رغم أنه صيني، كنت قد جربت مقدرته على السفر، سافرت به إلى «طهطا» من «الأقصر» ـ وهي مسافة تقترب من الثلاثمائة كيلو متر ـ ثلاث مرات، وسافرت به من «الأقصر» إلى «أسوان» مرة واحدة، وهي مسافة تزيد عن المائتي كيلو متر بقليل، وسافرت به إلى «قنا»، التي تبعد عن «الأقصر» مسافة ستين كيلو مترا بالضبط، مرة واحدة.

إنه موتوسيكل قوي حقا، فلماذا لا أسافر به إلى «القاهرة»؟!

زعق أبي في وجهي وهو يشوح بذراعيه من فرط ذهوله: «سوهاج» غير «مصر»! دي «مصر»!.. مااااصر.

المسافة بين «الأقصر» و«القاهرة» تقترب من السبعمائة كيلو متر. همست: فعلا.. دي «مصر».

وقلت مرة ثالثة: إن شاء الله خير.

مارست مع «الموتوسيكل» طقوس ما قبل السفر، أولا الذهاب به في دورة صيانة، والاطمئنان عند أحد الميكانيكية على حالة موتوره، والتأكد من تثبيته في الشاسيه، ثم ضبط ضغط الهواء في عجلاته، ثم تغيير الزيت، وملء «التنك» بالبنزين، ثم أوقفته أمام البيت وبدأت في إعطائه دشا متكاملا.

وأنا أعطيه الدش، أشعر وكأني أنظف فرسا عربيا أصيلا، وألمح في كشافه نظرة صبورة، وأحرص على أن أنظف أدق تفاصيله، وأخاله يهز جادونه، وكشافه، وعجلته الأمامية، فرحا ونشاطا، تماما مثلما ينفّض فرس أصيل رأسه، وصدره، وينقل ساقيه الأماميتين، ولا أتركه إلا وهو يبرق مثل جوهرة حرة معلقة بجيد غادة لا مثيل لها في الألق والحسن.

صليت لله ركعتين، طلبت منه فيهما أن يحفظني على دابتي، ويحفظ دابتي من تحتي، ويحفظ أسرتي من ورائي، ثم ودعت الزوجة والعيال، وودعت الوالد والوالدة، وركبت «الموتوسيكل»، وضغطت على «المارش»، فهدر «الموتور»، وهمست: شد حيلك يا جميل.. مشوارك طووووويل.

فنعر، وانطلق.

كانت الساعة الثانية بعد منتصف ليل 20 سبتمبر 2011، الجو بديع مائل للبرودة، وقطع «الموتوسيكل» شوارع «الأقصر» بتؤدة كأنه يودعها، ثم استلم الطريق الزراعي السريع، «أسوان» / «القاهرة»، وفتح السرعة.

ليس أمتع من سفر الليل إذا كنت تقود دابتك، وعلى عكس ما كنت أعتقد، كل شيء في سفر الليل وديع، كل العالم صاحب لك، الطريق نفسه في الليل حنون، والسيارات المسافرة تضرب لك الـ «كلاكسات» التي تشخط: انتبه لنفسك..احذر النوم.

وتضرب عينيك بالنور العالي، تصرخ: فوق وصحصح.

الطريق السريع بعد منتصف الليل عموما هادئ، وأنا سعيد، سعيد جدا، فأنا عندما أسافر بـ «الموتوسيكل» أحقق حلما عاش معي يغازلني، ويؤلمني، لأكثر من ثلاثين سنة، أي منذ بداية فترة مراهقتي، لما كنت أقرأ قصص كابتن «زورو»، هذا الفارس المرتدي بدلةً سوداء محزقة، وحذاءً أسودَ جلديا طويلا، وقد غطى عينيه بقطعة من جلد تشبه النظارة، وعقد حول رقبته وشاحا أسود طويلا، يطير خلف ظهره، أحببت كابتن «زورو»، وحسدته على بذلته، وفرسه، وظللت أحلم بفرس، وبذلة جلدية سوداء.

ومضت الأيام، وجرت السنون، والحلم في تلافيف العقل الباطن في حالة بيات شتوي، وفجأة ها أنا على «موتوسيكل» يركض مثل فرس، أمد يدي للأمام أقبض على لجامه، مرتديا قميصا وبنطلونا أسودين، وعلى عيني نظارة غامقة، وضع يشبه، قليلا، وضع كابتن «زورو»، وإذا كان الكابتن عاش مغامرا، فها أنا عندما أسافر بـ«موتوسيكل» إلى «القاهرة»، من «الأقصر»، على طريق سريع، منفلت أمنيا بسبب ثورة 25 يناير، لست أقل مغامرة من كابتن «زورو».

على الرغم من أني أقود ماكينة تجري على عجلتين فقط، وتجري بسرعة تسعين كيلو في الساعة، وتحتاج إلى التركيز الشديد في القيادة، إلا أن صوت الموتور الرتيب، وهدوء الطريق، جعلاني أسرح، كان صوت «مأمون الحجاجي» هو الذي انداح لبداية منطقة السرحان، كان محتدا، وغاضبا: شهادتك في مجلة «الثقافة الجديدة» كانت ظالمة.. حرام عليك يا أخي.. هل كل الأدباء في نادي أدب «الأقصر» في بدايتك كانوا يذبحونك؟! نسيت «حسين خليفة»؟! نسيتني أنا يا أخي؟!

قلت: لم أكن يا «مأمون» في معرض التحدث عمن ذبحني ومن أحياني.. كنت أكتب عن الجو العام.. كان نادي الأدب سلخانة.. وكثيرون ذبحوا..

يعلو صوت «مأمون»: لا يا بيه.. كما ذكرت أسماء من وقفوا ضدك كان يجب أن تكتب عمن وقفوا معك.. أنت كنت تريد تعظيم نفسك..

تذكرت «حسين خليفة»، رحمه الله، كنا نسير، أنا وهو، أمام فندق «الإيجوتيل» بمواجهة معبد «آمون»، وقد خرجنا للتو من سلخانة الثلاثاء، المسماة «نادي الأدب»، وعيناي تكادان تقطران دما غضبا مما قالوه عن

قصتي، لم يكن «أبوخليفة» يتكلم عن قصصي، وإنما يؤثر الصمت، لكنه، هذه المرة، قال لي: ما تكتبه جديد.. وأنا لا أعرف إن كان سيحسب لك.. أم عليك.

ولم يقل لي «حسين خليفة» شيئا آخر عما أكتب حتى مات.

وينساب صوت «مأمون الحجاجي» قادما من زمن بعيد، عندما قرأ لي لأول مرة: المستقبل في هذا النادي لاثنين.. في القصة لـ«أشرف الخمايسي».. وفي الشعر لـ«أشرف فراج».

ويتفجر صوت «مأمون» غاضبا: وعندما عدت بعد انقطاعك الطويل هل وجدت الذبح أيضا؟! فين يا عم «أشرف»؟! كلنا واقفين معاك.

كمين مروري عند قرية «خزام».

أوقفني العساكر.

ـ جاي من فين يا شيخ؟

دائما ما كانت لحيتي الخفيفة تجعل الناس تناديني «يا شيخ».

ـ من «الأقصر».

ـ من الأقصر!؟

قالها مندهشا و«الأقصر» لا تبعد عن «خزام» أكثر من خمسة عشر كيلو مترا.

طلب مني الرخص، أعطيتها له، فأخذ يقلبها.

- ورايح على فين يا شيخ؟

- «القاهرة» إن شاء الله.

قلتها بهدوء شديد وكأن ضواحي «القاهرة» تلوح في الأفق، لكن الرجل أخذ ينظر لي، وينظر لزملائه، وينظرون له، وينظرون لي، وأخيرا نظروا كلهم لـ «الموتوسيكل»، ثم نطق العسكري: إنت بتتكلم جد يا شيخ؟! رايح «مصر» بـ «الموتوسيكل»!

أقسمت له أني مسافر إلى «القاهرة» بهذا «الموتوسيكل». فأخذ يدور حوله وهو يتأمله باستغراب، فـ«الموتوسيكل» عادي، ولا يوحي منظره بأنه يمكن أن يصل إلى «قنا»، فضلا عن «القاهرة»، لكن أحدهم زعق: دا «هامر» يا عم.

والحقيقة أنني سعدت جدا بملحوظة هذا العسكري، فلقد جعلتني أشعر أن موتوسيكلي طالما هو ماركة «هامر»، ولو صيني، فهو متميز فعلا.

الطريق الهادئ، الحقول المظلمة، القرى الناعسة، ورتابة صوت «الموتور».

أول من وقف يسندني، بعد عودتي للكتابة، صديقي الشاعر «أسامة البنا»، رتب لي مع أدباء «أسوان» مشاركة في «ليالي المحروسة»، وهو برنامج من عدة أمسيات ثقافية تعده الهيئة العامة لقصور الثقافة أيام شهر رمضان الكريم، وقابلت هناك من أحببتهم وأحبوني: «عصام راسم»، و«أحمد أبو خنيجر»، رفقائي من الجنوب في جيل التسعينيات، جمال عدوي الشاعر النقي، علية طلحة، وقابلت لأول مرة القاص الجميل «يوسف فاخوري»، فأعطاني محبته، وأعطاني «آيس كريم».

ووقف معي «حسين القباحي»، فألح عليّ في الانضمام إلى اتحاد الكتاب، وكان أستاذنا «جمال الغيطاني» قد أشار عليّ بالانضمام إلى هذا الاتحاد منذ اثنتي عشرة سنة ورفضت، فأنا ممن يرون أن الأديب يجب أن يكون حرا، ليأخذ راحته مع قلمه، فلا يخشى الخسائر من إعلان رأي غير مرض، أو يبحث عن قطعته من التورتة بكتابة ما هو مرض، لكن «القباحي» قدم لي إغراءً لم يكن من السهل رفضه، «المعاش بعد سن الستين». والحقيقة أن هذا الإغراء لم يكن ليغير رأيي لولا أنني تذكرت أبي، والدي لم ير يوما قط أن هناك فائدة يمكن أن ترتجى من الأدب، ربما يتغير رأيه الحاد لو علم أن الأدب يمكن أن يقدم معاشا! وبالفعل سعد أبي جدا بكارنيه الاتحاد، الذي سيجعل من حقي، بعد سن الستين، صرف معاش شهري، حتى وإن كان في ضآلة معاش الاتحاد.

«آآه يا مأمون.. لم يكن هناك ذبح بعد عودتي مثل الذبح الأول.. فالخمايسي الأول ليس هو الخمايسي الثاني .. لقد قدم الكثيرون ترحيبا بعودتي .. وكان الحب مقدما منهم .. لكن الوضع اختلف بعد أن عارضت مواقفَ رأيتها مهينة للحركة الأدبية في الأقصر.. وندم بعضهم على ما قدم .. بل صاروا يتمنون لو أنهم كانوا حجرعثرة.. إنه ذبح بشكل مختلف.. آآه يا مأمون».

بين «قنا» و«دشنا» صارت الساعة الرابعة، قبل الفجر بدقائق، لم يعد الجو بديعا، وإنما صار باردا، بل زمهريرا، هذا الزمهرير يخبط في جسدي بسرعة تسعين كيلو مترا في الساعة، بدأت أرتعش، بل أنتفض، كل جسدي يرتج، وكنت في مسافة من الطريق مدلهمة الظلمة، والطريق يتجه بشكل

رأسي إلى جبل قريب شاهق الارتفاع، تنعكس عليه أضواء «دشنا» البعيدة، فيبدو مثل عاصفة تقترب في سكون مهيب، لم تكن القيادة تمنحني فرصة لتأمل هذا المشهد، ولم يكن الوقوف في هذا الظلام، في هذه المسافة المهجورة، يعبر عن شيء من الحكمة، لكن متى كانت المغامرة ترتبط بالحكمة؟ ثم إني، كرجل يكتب القصة والرواية، محتاج جدا لتأمل مشهد الجبل ليلا.

أعملت لمبات الانتظار وتوقفت.

يالرهبة السكون في حضن جبل شاهق، يطل عليك في أحلك أوقات الظلمة، وأشجار النخيل تتناثر في سفحه كمومياوات منتصبة، كان جسدي يرتعد، الصقيع يرجُّه، والآن تنفضه هذه الرهبة، وتبدَّى الخوف سريعا، فركبت «الموتوسيكل» وانطلقت أخترق الظلام بكشاف ساطع الضوء.

بعد قناطر «نجع حمادي» بدأ ضوء يحبو في أركان السماء، جسدي يواصل ارتعاده، وكنت أتشبث بمقود «الموتوسيكل» خشية أن يهتز من فرط ارتعاشي، النظارة رغم كبرها أثبتت فشلها، لسع الهواء البارد يخترق زواياها إلى عينيّ، فتنهمر منهما دموع لا تتوقف، ومن أنفي يتدفق ماء، وتمنيت لحظة دفء، ولم يعد همي الوصول إلى «القاهرة»، وإنما الوصول للحظة دفء.

بعد «دار السلام» سطعت الشمس، وصحت الدنيا، بينما الزمهرير يمزق جسدي، وهناك، على الجانب الأيمن من الطريق، لاحت عربة كارو عليها شوَّاية «بطاطا»، يتدفق الدخان من قمتها، ليس لي في «البطاطا»، لكني

أطلب دفئا، والبطاطا مشتعلة بالحرارة، أوقفت «الموتوسيكل»، واشتريت قطعتين، أخذت التهمهما مثل حيوان مفترس جائع، وبدأ الزمهرير ينحسر، كانت أحلى «بطاطا»، وصار لي فيها، وصار لي دفء.

كان يوم «سبت»، أول يوم من أيام العام الدراسي.

في «صدفا» ملأ التلاميذ الطريق، تلاميذ من مختلف الأعمار، زهور متحركة، يمشون بهمة ونشاط، يضحكون ويتصايحون، عام دراسي بطعم «الثورة»، أول عام دراسي، منذ عقود، بطعم الحرية.

وفيما بين الظهر والعصر توقفت عند مطعم صغير بعد «المنيا»، أو ربما بعد إحدى مدن «المنيا» القريبة من حدود محافظة «بني سويف»، لقد أمضيت أكثر من اثنتي عشرة ساعة سفر.

ركنت «الموتوسيكل» في متسع أمام مطعم صغير، وكان الشاب الذي يعد الأطعمة ينظر إليّ، فهمت أنه يستغربني، جلست إلى منضدة صغيرة في المتسع، وطلبت طعاما خفيفا، سندويتشات «كبدة» و«سجق»، وقدم لي الشاب ما طلبته، وسألني: الشيخ من فين؟

قلت: من «الأقصر».

فنظر إلى «الموتوسيكل»، وعيناه تسألان السؤال الذي أعرفه، فقلت: نعم.. أنا قادم من «الأقصر» بـ«الموتوسيكل».

تقدم نحو «الموتوسيكل» منبهرا، ونظر إلى لوحاته المعدنية، وهمس: والله انت مغامر يا شيخ!

نبـرة صوتـه تؤكد أنـه يريد أن يقـول «والله انـت مجنون يا شـيخ» لكنه استحى، وسـألته إن كانت «بني سـويف» قريبة، فزاد اندهاشـه، وقال: انت ذاهب إلى «بني سويف»؟!

وبدا لي أنه انسطل تماما لما قلت له: لا.. أنا ذاهب إلى «القاهرة».

وأخذ يقول: والله انت مغامر يا شيخ!

كانت عيناي قد وصلتا إلى حالة يرثى لها، والغروب بدأ يرسـم بفرشاته العالـم من حولي، حقـول صفراء، وأبنيـة تتجه للنعاس، وملـل ضربني في مقتل، المشـوار طال جدا، سـت عشـرة سـاعة على «الموتوسيكل»، وليس أقـل من ثلاث سـاعات أخـر حتى أصل إلـى «القاهرة»، لم أعـد أعرف أين أنـا، ما أعرفه هـو أنني مررت بمدينة «بني سـويف» المحافظة، خلاف ذلك لم أعرف شـيئا، والطريق الزراعي أسـوأ طريق في «مصر»، أسـوأ طريق في العالم، مطب صناعي كل اثنين كيلومتر، ما إن يأخذ «الموتوسـيكل» سرعته حتى يقابله «المطب»، فتنزل سـرعته إلى الصفر، الماكينة تتعب، والإنسـان يتعـب، والوقـت يضيع، كان مخططي أن أصل إلـى «القاهرة» خلال خمس عشـرة سـاعة، وها قد مضت ست عشـرة سـاعة وبالكاد خرجت من مدينة «بني سويف».

مفترق طرق واسـع، ولا يافطات فيه تدلني على اتجاه «القاهرة»، تلفتُّ حولـي أبحث عمن يدلني، ناديت على رجل في خمسـينيات عمره، يرتدي جلبابا أنيقا، وبسـمته تملأ وجهه، فتقدم نحوي مسـرعا وقد شـعر أنني أريد مساعدة.

- السلام عليكم يا حاج.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. أي خدمة يا شيخ؟
- أي طريق من هذه الطرق يؤدي إلى «القاهرة»؟
- «القاهرة»! انت رايح «القاهرة» بـ«الموتوسيكل»؟!
- إن شاء الله.
- وجاي من فين على كده؟!
- من «الأقصر».

وإذا بالرجـل يصـرخ بأعلى صوته مناديا على آخـر يمضي على رصيف في المفترق: يا «محمد».. تعال شوف المرار القاسي!

وبينمـا الحاج «محمد» يتقدم نحونا، كان الرجل يقول لي، وقد تحولت تقاطيع وجهه من الابتسـام إلى الاستغراب الممزوج بالقلق، فأحسست أنه سيبكي: بـ«الموتوسيكل»!؟ بـ«الموتوسيكل»!

وزعق الحاج محمد: خير.. في إيه؟!

- الشيخ جاي من «الأقصر» بـ«الموتوسيكل» دا.. ورايح «مصر»!

فانقلب وجه الحاج «محمد» بسرعة، وبدا أنه قد صُدم، ثم فجأة استدار، ومضـى وهو يضرب كفا بكف، ويزعق: والله يا شـيخ انتـو عالم مجانين.. بـ«الموتوسيكل»!؟ من «الأقصر»!؟

أعلم أن الطريق الزراعي طريق سـيئ، إلا أنني فضلت السـفر عبره، ولم أحـب السـفر عبر الطريق الصحراوي، لا الشـرقي ولا الغربـي، علي الرغم

من أنهما طريقان غاية في التمهيد، فلقد تخوفت من فكرة أن يحدث لـ«الموتوسيكل» عطل ما، لو حدث لن يقف لي أحد على الصحراوي لنجدتي، ولا على الزراعي، خوفا من ألاعيب قطاع الطرق في زمن الانفلات الأمني، لكن لو طرأ طارئ، وأنا على الزراعي، يمكنني أن أدفعه بيدي لأقرب ميكانيكي، الطريق الزراعي عامر بالبلاد والناس، لكن بعد أن سألت أخانا إياه عند المفترق عن طريق «القاهرة» أشار إلى اتجاه ما إن توغلت فيه لمسافة تقترب من الخمسة والثلاثين كيلومترا، حتى وجدت نفسي في طريق صحراوي، ووجدت لوحات إرشادية مكتوبا عليها المسافة المتبقية للوصول إلى «العين السخنة»! ولوحات تشير إلى «القصير»! هذا مع لوحات تشير إلى أن «القاهرة» مازالت تبعد لأكثر من مائة وخمسين كيلومترا، وهنا ضرب الخوف قلبي.

بدأ ضوء المغارب يخبو، والظلام بدأ السيطرة، سيقدم الليل، ما الذي أتى بي إلى الصحراوي المقطوع؟

هاجمتني الوساوس، هل هناك بنزين كفاية في «التنك»؟

ما هذا الصوت الصادر من «الموتور»؟

يخيل لي أن «الموتوسيكل» قد صار ثقيلا، مصيبة لو كانت إحدى عجلاته قد ثقبت!

ليست هناك أية أضواء على الصحراوي، إلا الأضواء المبهرة العالية لكشافات السيارات القادمة في الاتجاه المعاكس، فأشعر وكأني أسبح في ظلام، لم أكن أرى حدود الطريق، كنت أنطلق خلف الأضواء الحمراء

للعربات التي تسبقني، لم أكن أرى الطريق، وإنما بحر ظلمات، هذه المسافة من الرحلة مرعبة، وطاقتي أوشكت تماما على النفاد، كنت قد قضيت أكثر من ثماني عشرة ساعة متواصلة على «الموتوسيكل»، ومازالت «القاهرة» تبعد أكثر من عشرين كيلو مترا.

وجدٌّ جديد مبهر، انبثق الأمل، وانتعشت روحي، هاهي السماء تضيء بنور عمران «القاهرة»، وها هي قبة جوهرة متلألئة تبدو في الأفق، إنها «القاهرة»، «القاهرة»، «القااااااهرة».

دخلت «القاهرة» من ضاحية «حلوان»، وكانت ميكروفونات المساجد تزعق بأذان العشاء، واستلمت طريق «الكورنيش»، حتى وصلت إلى معالم «القاهرة» التي أعرفها، المعالم التي عايشتها أيام الدراسة، وأيام الهجرة الأولى إليها في تسعينيات القرن الماضي من أجل الأدب، ها هو كورنيش «الملك الصالح»، ثم بداية شارع «القصر العيني»، ثم شارع «القصر العيني»، وميدان «التحرير»، «المتحف المصري»، ميدان «عبد المنعم رياض»، شارع «رمسيس»، «الإسعاف»، «باب الحديد»، ثم بداية شارع «كلوت بك»، شارع اللوكاندات الرخيصة، كنت قد وصلت إلى آخر حدود التحمل، وكل مناي عشاء على إحدى عربات الفول المنتشرة في الشارع، ثم بيات في لوكاندة، أية لوكاندة.

لن يكون العشاء هنيئا إلا بعد حجز غرفة أضع فيها حقيبتي، ثم آخذ دشا، وأنزل للعشاء.

لم أكن أتخيل حجم الكارثة التي كانت تنتظرني، نعم كارثة مهولة، وكيف لا تكون مهولة، وأنا في أمسِّ الحاجة للنوم، بينما كل اللوكاندات

ترفض استقبالي لا لشيء سوى أنهم ليس باستطاعتهم تحمل مسئولية الحفاظ على «الموتوسيكل»!

صدمة أربكت برنامجي تماما، وكانت قاسية، لأنها فاجأتني وأنا في أشد حالات التعب، هناك حلول، لكنها محفوفة بما يجعلها صعبة التنفيذ، مثلا يمكنني الذهاب إلى أحد أقاربي، لكنهم يسكنون في الضواحي البعيدة، وحتى لو كانوا يسكنون في وسط البلد، ما كنت أقدر أن أدخل عليهم بمنظري المهلهل هذا، ملابسي شحبت، وعيناي تورمتا، وبالتأكيد اعتلاني كل تراب «مصر»، ولنفس الأسباب لم يكن ممكنا الذهاب للمبيت عند أحد أصدقائي.

لم يكن هناك مفرٌّ من أن أحيا، ابتداء من هذه اللحظة، حياة الصعلكة، فركنت «الموتوسيكل» بجوار سور مسجد «الفتح»، في ميدان «رمسيس»، ثم توجهت إلى دورة المياه فيه.

هل أستحم وأغيِّر هدومي؟ قلت لنفسي: لا. لماذا تغير هدومك وأنت داخل على ليل طويل لا تعرف أين، ولا كيف، ستقضيه؟

اكتفيت بغسل وجهي ورأسي، ثم خرجت، بعدها قلت: لا تحمل الهم.. ولا تحرم نفسك من هذه المتعة الصغيرة.. أكل طبق فول على هذه العربات المزوقة الشهيرة في «القاهرة».. وربك ميسر.

وبالفعل، لم أحرم نفسي، لكني وأنا آكل كنت أفكر: أين سأنام بعد كل هذا الإجهاد؟ بعد سفر تسع عشرة ساعة، متواصلة، على موتوسيكل لا مفر من النوم، لكن أين؟

وإذا بالفكرة العبقرية تهبط على نافوخي هبوط سفينة فضاء على سطح كوكب، هبوطا هادئا ومريحا، وأيضا قلقا.

إننا في زمن الثورة، ولابد من ثوار في «التحرير»، لقد رأيناهم في التليفزيون وهم يفترشون هذا الميدان وينامون فيه ليل نهار، ومؤكد أنني سأجد مكانا بينهم، ويمكن أن أعثر على أحد من هؤلاء المثقفين، الذين يصدعون رؤوسنا على الفيس بضرورة مواصلة الثورة، سأعرفهم وسيعرفونني، أنا مثقف مثلهم، إذن ولله الحمد ضمنا البياتة.

أول مرة أجد نفسي أقود شيئا ما في شوارع «القاهرة» يستلزم مني أن أعرف الاتجاهات، ولو أنني في زمن غير زمن الثورة لحُرِّرت لي، في هذه الليلة، أكثر من عشر مخالفات مرورية، إيشي كسر إشارة، وإيشي مرور في الاتجاه المعاكس.

ولا أعرف كيف وجدت نفسي فجأة في شارع «الجلاء»! ولم أعرف، أيضا، كيف وجدت نفسي على «الكورنيش»، وأنزل في نفق، وأطلع منه لأجد «التحرير» خلفي!

طيب. كيف أعود إلى «التحرير»؟

ووقعت في «حيص بيص»، فأخذت أنظر حولي بعينيْ متسول قح.

رأيت على يميني، تماما، شرطة المسطحات المائية، وثمة شرطيان على البوابة يتجاذبان أطراف الحديث، وبينهما على السور دورق مياه، فتذكرت أنني عطشان.

- السلام عليكم.

رد أحدهما وهو ينظر إليَّ باندهاش متخوف: وعليكم السلام.

أشرت إلى دورق المياه وقلت: ممكن أشرب؟

سارع كلاهما بمد يده للدورق كي يقدمه لي، بينما يقول أحدهما: طبعا يا شيخ.

وأخذت الدورق، وشربت نصفه، وقلت: الحمد لله.

وقلت: أرجع ازاي لـ «التحرير»؟

نظرا إليَّ باندهاش، لكن أحدهما قال: من أول ما قلت السلام عليكم عرفت انك غريب مش من «الكاهرة».

ابتسمت وقلت: ليه؟

قال: الناس في «الكاهرة» ما بيرموش السلام.. هوا الواحد منهم ييجي يسألك.. وانت تدله.. ويمشي حتى من غير ما يقولك شكرا.. تحسهم مجانين.

قال الآخر: انت من فين يا شيخ؟

قلت: من «الأقصر».. وجاي بـ «الموتسيكل» من هناك.. واللوكندات لم تقبل تسكيني.. و...

وحكيت الحكاية، والاندهاش يسطع، ويتجلى، ويتمكن، من وجهي الشرطيين.

وقلت: وما فيش غير «التحرير» ممكن أبات فيه مع الثوار.

فألقى أحدهما بقنبلة مدوية: «التحرير» فاضي اليومين دول يا شيخ.. ما فيهوش حد خالص.

كان «التحرير» أول، وآخر، أمل بالنسبة لي في بياتة أقضي بها الليل، وأريح بها جسدي الذي أشعر به ينهار، فكان طبيعيا أن يتبدى على وجهي الغم الشديد.

لكن الغم زال فجأة، لما سمعت أحدهما يقول لي: عندي فكرة يا شيخ.. بص كده.

وأشار إلى الأرائك الحجرية المتراصة على رصيف «الكورنيش».

كانت الأرائك مزدحمة، كل أريكة يجلس عليها زوج من العشاق الحبِّيبة، إلا خمس أرائك في حدود السور الخاص بشرطة المسطحات النهرية.

قال الشرطي المجند: «الكرويتات» دي تبعنا.. نام على أي واحدة تعجبك.

كان الفرج الإلهي سحريا، فبالنوم على هذه الأريكة سأضرب عدة عصافير بزلطة واحدة. أنام على أريكة بدلا من النوم على الأرض في ميدان «التحرير»، وسأنام في حراسة مجندي شرطة المسطحات المائية، فلا يسرق لص جنيهاتي القليلة، ولا يغتصب أحدهم موتوسيكلي، ثم .....

قلت بصوت خفيض: طيب لو تكرمتما عليّ.. أنا عندي مرض «السُّكر».. وأحتاج أحيانا أن أدخل دورة مياه ليلا.. ممكن يعني ...

فقال أحدهما: إحنا هانسلم الوردية الساعة حداشر.. ما تخافش.. هانوصي عليك زمايلنا اللي ها يستلمو الوردية مننا.

فحمدت الله كثيرا.

أجمل ما في «القاهرة» أنها مدينة يمكن أن تأخذ فيها راحتك تماما، بمعنى أنه يمكنك فيها عمل أعمال المجانين دون أن يلومك أحد، أو حتى يهتم بفعلك أحد، وإلا هل كان بإمكاني أن أفعل ما سأفعله الآن؟! أنام في الشارع ؟! وعلى الكورنيش؟!

وعلى الرغم من كل هذه الحراسة إلا أنني كنت خائفا من أن يُسرق «الموتوسيكل» وأنا غارق في النوم، فركنته بطريقة تجعله يميل ناحيتي حتى يكاد يلاصق الأريكة، ثم وضعت شنطة هدومي الصغيرة تحت رأسي، وفردت ذراعي وأحطت بها «تنك» البنزين.

كنت أبدو، لمن ينظر إليّ، أنني أحتضن «الموتوسيكل»، أنا نفسي شعرت بهذا، فصعبت عليّ نفسي.

«كل من يجلس على أريكة يحضن بنتا وأنا أحضن موتسيكل!».

اتصلت عبر الجوال بزوجتي لأطمئنها، أخبرتها أنني نزلت في فندق فخم، وأن غرفتي تطل على «النيل» مباشرة، فصرخت تلومني على التبذير، فقلت لها: خلّينا يا ستي ندوق حلاوة الفنادق اللي على «النيل».

وأخبرتها أنني سأغلق الهاتف لأنام نوما عميقا، وقالت لي: فندق على «النيل» مرة واحدة! الله يرحم ...

فأغلقت الخط، وأغلقت عينيّ، ورحت في سابع نومة.

ورأيت فيما يرى النائم، أنني أتجه إلى مبنى اتحاد الكتاب في «الزمالك»، وأنني أبرز بطاقة العضوية، فيرحب بي ضابط الأمن، ويستسمحني في الجلوس على كرسي «فوتيه» في الاستقبال لدقيقتين، ثم يجري اتصالا، ثم (قال إيه) أجد بنتا رشيقة، جميلة، تأخذ مني شنطتي، وتتقدمني إلى غرفة في «بنسيون» أنيق، خصصه الاتحاد لاستقبال أعضائه الذين يزورون «القاهرة» لسبب ما، بمقابل مادي بسيط...

واستيقظ «السُّكري» فأيقظني من الحلم الجميل، ها أنا أريد الذهاب إلى الـ «دبليوسي»، وبشكل مُلح.

كان الجندي الواقف على بوابة شرطة المسطحات المائية غير الجندي الذي أعرفه، هذا جندي الوردية الثالثة، ألقيت عليه السلام، فردَّ عليَّ بطريقة فاترة، قلت له: أنا.. هوَّ المفروض إن فيه عسكري قبل منك.. ما قاللكش حاجة؟

- ما حدش قاللي حاجة.

- طيب.. أنا عندي سكر ومحتاج أخش الحمام دلوقتي حالا.

- ماقدرش.. ممنوع.. ممكن في أوقات الصلاة بس.

من الممكن أن أنام على رصيف في شارع من شوارع «القاهرة»، لكن أن أتبول عليه؟!

نظرت لهذا الجندي وأنا أكاد أبكي، وهمست: والعمل؟

فأشـار بيـده إلى الناحيـة الأخرى من الشـارع وقـال: هناك جـراج بتاع عربيات فيه دورة ميه.. فك زنقتك فيها.

وفككت زنقتي.

وعـدت للنوم مـرة أخرى، بعد أن حضنـت موتوسـيكلي، وإذا بي أرى فيما يرى النائم، «محمد سلماوي»، رئيس اتحاد كتاب «مصر»، يقف خلف منصـة في قاعة فخمة امتـلأت بالمثقفين والأدباء، ويقـول: ليس أفضل في الجنس البشـري من الأدباء والمثقفين، وخاصة أدبـاء ومثقفي «مصر»، بلد الحضارة، سأعمل بكل ما أملك من مقدرة وجهد على تحقيق ما يليق بهم، ويحفـظ لهـم كرامتهـم، لا يجب أن يكـون أديب ما، أو مثقف ما، مشـغولا بهمٍّ لقمة عيشـه، يجب أن نعينه على التفرغ تمامـا للإبداع، والتفوق، طالما هو يسـتحق ذلك، الأديب شخصية عامة، ويجب أن يعامل كشخصية عامة، لا يجـب أن يبيت علـى رصيف «الكورنيش» عندما يأتـي إلى «القاهرة»، لا يجب أن يدخل دورات مياه حقيرة ليفك زنقته ....

وصحـوت من نومي قبل الفجر، بقليل، على صوت جهوري يهتف بي: يا شيخ.. يا شيخ.

كانا شـرطيين شابين، ينظران إليَّ هذه النظرات المتَّهِمة التي تكون عادة في عيون البوليس.

قال أحدهما، وهو يشير إلى الموتوسيكل: المكنة دي بتاعتك؟

اعتدلت، وقلت بصوت كسَّره النوم: أيوا بتاعتي.

قال الآخر: معاك ورق يثبت إنها بتاعتك؟

قلت وأنا أخرج الحافظة: معي رخصة تسييرها.. ومعي رخصة القيادة.. وكمان بطاقتي الشخصية.

أخذا ينظران في البطاقات، ثم أعاداها إليّ.

قال الأول: باين عليك مش من هنا يا شيخ.

قلت: البطاقات بتقول إني من «الأقصر»!

قال الآخر: «طيب انت عارف يا شيخ انت نايم فين؟

قلت متعجبا: أنا نايم على «الكورنيش».

قال الأول: أيوه.. بس دا كورنيش «جاردن سيتي».

بان على وجهي عدم الفهم.

استدرك: «جاردن سيتي» دا حيّ السفارات.

لـم يكن أمامي إلا الصمت، فأنا لم أفهـم، وقال الآخر: انت نايم ليه هنا يا شيخ؟

فحكيت لهم الحكاية من «طق طق» إلى «السلام عليكم».

فقـال الأول: ما كنـت قولتلنا كدا من الأول.. احنا هانسـاعدك يا شيخ لوجه الله.. هاندلك على نومة محترمة.. وكمان أكل ببلاش.

قلـت: مـا فيـش داعـي.. الفجر قـرب خـلاص.. وفي الصبـح هأقضي مصلحتي.. وارجع فورا على «الأقصر».

قـال الثانـي بإلحاح: لا يا شـيخ.. ما تمشـيش إلا لما تقضـي مصالحك كلها.. وبراحتك خالص.

قال الأول: فيه شوية مشايخ معتصمين ورا جامع «عمر مكرم».. عايزين يرجّعوا الشيخ «عمر عبد الرحمن» من «أمريكا»..هانوديك تبات عندهم.

قلت معترضا: مافيش داعي ...

أمسكني أحدهم من يدي، وقال بإلحاح أقوى: والله تيجي.. احنا عايزين نعمل معاك واجب.

الغريب ليس فقط أعمى ولو كان بصيرا، هو أيضا ضعيف ولو كان أميرا، ذهبت معهم وأنا لا أعرف كيف أطعتهم، وتركت موتوسيكلي؟! كنت أشعر أنه هدف لعملية نصب تجري الآن! وأن المقاومة بشكل اعتباطي قد تؤدي لما هو أخطر من فقد «الموتوسيكل».

لم تكن المسافة بعيدة، وفي الطريق تأكدت من أن عملية احتيال تستهدفني من هذين الشرطيين، أو من يدعيان أنهما شرطيّان، فلقد سألني أحدهما: معاك فلوس كتير يا شيخ؟

قلت: معي مبلغ بسيط.. بالكاد هأقضي به مصالحي.

وعلى الرغم من ذلك بقيت سائرا بينهما!

لكن ظهر تجمع المعتصمين من أجل استعادة الشيخ «عمر عبد الرحمن»، كان المنظر مأساويا، مشايخ ينامون على أبسطة فرشت على الأرض، لا يمكنك أن تفرق بينهم وبين المتسولين، ولافتات تحيط بهم مكتوب عليها عبارات التنديد بحبس «عمر عبد الرحمن» في «أمريكا»، ولافتات مكتوب عليها عبارات تطالب باسترجاعه.

أفقت من اندهاشي على صوت أحد الشرطيين وهو يشرح موقفي لأحد المعتصمين، ويطلب منه أن يمكنني من المبيت بينهم، ولم يبد الرجل اعتراضا، فقط طلب أن يحتفظ ببطاقتي طالما أنا موجود بينهم، حفاظا على النظام، وللتأكد من شخصيتي. كانا يتكلمان، وقد قررت عدم التواجد بين هؤلاء ولو انطبقت السماء على الأرض.

تعامل الشرطيان معي بشكل حميمي، أو بديا كذلك، فقد ألحا عليّ، جدا، في أن أبقى بين هؤلاء المعتصمين، لكني رفضت بقوة، وقلت إن الأمر لا يستلزم، فأنا سأسافر اليوم فور قضاء المصلحة، فلم يجدا بدًّا من الانصياع لرغبتي في عدم الانضمام لهذا المكان، وعادا معي إلى حيث كنت أنام على أريكتي الحجرية، وحمدت الله أن «الموتوسيكل» لم يسرق، وقبل أن يغادراني قال لي أحدهما بصوت منكسر: ممكن يا شيخ تعطينا عشرين جنيها.

حمدت الله أن الخسارة لم تتجاوز هذا الحد.

صليت الفجر في زاوية شرطة المسطحات النهرية، وفي غرفة للمجندين بدلت ثيابي، ثم ركبت موتوسيكلي إلى شارع «كلوت بك»، وانتقيت إحدى عربات الفول وتناولت إفطاري، كان الوقت المتبقي حتى الساعة العاشرة صباحا - وهو الموعد المضروب بيني وبين الأستاذ «إلهامي بولس»، صاحب دار «الحضارة»، التي أصدرت مجموعتي القصصية الأخيرة - طويلا، فقررت قضاءه في «التحرير».

ها هو «التحرير»، الميدان الذي صار أشهر ميادين الدنيا قاطبة كرمز للساحات التي يمكنها أن تتخلص من الطواغيت دون إراقة دماء، فقط

صيحات الغضب، فقط لافتات صغيرة يضعها الثوار على صدورهم تحمل رسائل ملتهبة إلى المستبد تطالبه بالرحيل، فقط أعلام «مصر» الضخمة تسبح مثل سفينة «نوح» على أمواج متلاطمة من البشر، فقط تجمعات «الفن»، حلقات «الشعر»، وحفلات السمر مع الأعواد التي تعزف نوتة الاستقلال من العبودية.

على أي عامود، من هذه الأعمدة، علق المتظاهرون دمية لـ «مبارك» وهو مشنوق؟

فجأة ضج الميدان بالثورة، وامتلأ بجموع البشر، ومزقت الصيحات صمت الخنوع «ارحل.. ارحل.. ارحل».

ولملمت الصيحات نفسها لتصير صوتا واحدا يهدر مثل هزيم الرعد «الشعب يريد إسقاط النظام».

لماذا كلما استرجعت هذه الجملة تدمع عيناي؟ «الشعب يريد إسقاط النظام».

وتلتهب الحناجر «ارحل يعني إمشي.. ياللي ما بتفهمشي».

الجموع تتلاطم، لا مكان لقدم، والوجوه اغتسلت من الجبن القديم، وها هي تسطع ببهاء الكرامة، والمتحف المصري ينظر، من قريب، مبتهجا بالتاريخ الجديد الذي يسطَّر أمامه، ومئذنة مسجد «عمر مكرم» مثل سبابة مهولة تتوجه إلى السماء وتصرخ: الله مع الثوار.

«يا مبارك يا جبان..يا عميل الأمريكان». وفي الجموع رأيتها.

فتاة تتحلى بروعة الجمال الرباني، تلفُّ حول رأسها طرحة مزركشة، زينت وجهها بالغضب الثوري، تهتف مع الهاتفين وهي ترفع ذراعها بمنتهى الحماس: يا مبارك يا طيار.. الطيارة في المطار.

وثمة فتى يقترب منها، في عينيه افتتان، وفي يده هاتف محمول، وعندما استطاع الاقتراب منها جدا، التقط لها صورة بكاميرا الهاتف، لكن البنت فجأة صرخت: انت قليل الأدب.

ثم ضربت بيدها الهاتف ليسقط بين الأقدام.

بالتأكيد تفتت الهاتف تحت الأقدام، لكن صوت الطرقعات الذي مزَّق ضجيج الحماس لم يكن صوت تهشمه.

رصاص ينطلق من ناحية «عبد المنعم رياض»، يخترق الهواء إلى صدور الثوار في «التحرير»، وطارت بيضات عفاريت الدخان المسيل للدموع لتسقط في بحور البشر، وزجاجات النار تحلق ثم تهوي لتنفجر على الأرض، فجأة بدأ الثوار يجرون هنا وهناك بشكل غير منظم.

في لحظات الخطر الداهم تكون الكلمة في الإنسان للغريزة، جرت البنت في اتجاه «عبد المنعم رياض»! الثوار يجرون وهم يصرخون: الكلاب.. الخونة.

وعلا هتاف جماعي يلملم الشتات الطارئ: موش ها نمشي.. هوا يمشي.

البنت تجري، لكن جسدا سقط أمامها فجأة، تدحرج دورتين قبل أن يهمد ممددا على ظهره، تحت قدميها.

اختفت ضجة الثورة، واختفى الثوار، ولم أعد أرى غير بنت واقفة، تضع كفيها على خديها، تحملق بذهول في وجه فتى ملقى تحت قدميها بينما الدماء المتوهجة تتدفق من ثقب في قاع جمجمته، كان هو الذي صوَّرها منذ قليل بكاميرا تليفونه.

البنت تعود إلى مكان الهاتف المحطم، تنحني، تلتقط ما تبقى منه، وكل قطعة ترفعها من على الأرض تسقط مكانها دمعة، وصوت هامس جدا يأتي من عند النهر، صوت مليء بالعزم: الشعب يريد.. إسقاط النظام.

بينما يعلو صوت «محمد منير» رويدا رويدا: يا بنت يا ام المريلة كحلي.. يا شمس هاله وطاله م الكوله.. أنا نفسي اقولك في الغزل قوله.. ممنوع عليا واللامسموح لي؟

النهر ينساب أسفل كوبري «قصر النيل»، ترسل أمواجه الصغيرة عطر الحياة، كان الشروق، وأبنية «القاهرة» تسبح في الضباب، وعلى الرصيف الأيمن للكوبري انتشرت قعدات الشاي والمشروبات، الصباح بارد، والبخار المتصاعد من الآنية التي يغلي فيها الماء المعدّ لعمل الشاي مغرٍ.

ركنت «الموتوسيكل» أمام إحدى هذه القعدات.

«حسين أبو ردينة» غريب الهيئة، يميل للقصر، ويميل للبدانة، رأسه ضخم، وشعره أصفر، منسدل حتى كتفيه، يرتدي «الجينز»، وحذاء كوتشي، كان هو صاحب الفرش، أعطاني كوبا من الشاي، وصب لنفسه كوبا، وأتى بكرسي وجلس بجواري.

– الشيخ باين عليه موش من «الكاهرة».

– أنا من «الأقصر».. وجيت من هناك راكب «الموتوسيكل» دا.. و...

وحكيت الحكاية إياها، واندهش أخونا «أبو ردينة»، مثل كل من اندهشوا قبله، وقال لي، مثل ما قاله كل من سمعوا الحكاية قبله: والله انت مغامر يا شيخ.

وكان يقصد أن يقول مثل ما قصدوا: والله انت مجنون يا شيخ.

وحكينا في الثورة، قال إنه فرح كثيرا بها، وقال إنه خائف على مصيرها، «الفلول» لا يهمدون، ولقد قطعنا رأسا واحدا للنظام، لكن ألف رأس باق يعبث، وينفث سمومه، وابتسم وقال: الثورة من حظ بنتي اللي اتولدت من أيام.. نفسي أسميها «ثورة».. أو حتى «حرية».

وقهقه، وقال: أسميها «سلمية».

وقال: نفسي «الإسلام» يحكم البلد.

اندهشت، لم يكن منظر «حسين» يوحي بأنه يميل لحكم إسلامي، كان أقرب ما يكون إلى «الهييز»!

قال: البلد أخلاقها باظت.. شايف البنات ازاي بقت تكشف بطنها! دولا سقَّطوا البنطلونات! طيب بيسقطوها ليه؟!

وقال: لكن أنا خايف لو مسكوها الإسلاميين بلاد بره يفرضوا علينا حصار زي «غزة» كدا.

وقال: أنا مالي ياعم.. أنا هاعمل اللي يخلص ضميري.. أنا هادِّي صوتي للإسلاميين.. أنا مسلم وعايز الإسلام يحكم البلد.. البنات باظت يا عم.. دولا سقطوا البنطلونات!

على هـذا الكوبري دارت ملحمة من ملاحم انتـزاع الحرية، الكر والفر بين المتظاهرين وقوات الأمن، ثم السيطرة الكاملة للثوار، دهست سيارات الأمن المركزي بعضا من الشـباب الفائر، وأغرقت الـكل بالمياه والدخان، لكن الله أنزل نصره على العزَّل إلا من قلوبهم الفولاذية.

سلام يا «حسين أبو ردينة».

كان الرجـل كريمـا جدا، وعنده شـهامة، لـم يقبل أن أدفع ثمن الشـاي، وقال: ها نتقابل تاني إن شاء الله.. فين؟ ماعرفش.. بس ها نتقابل.

سلام يا «حسين» يا أبو «ردينة».

ذهبـت إلى دار «الحضارة»، وقابلت صاحبها الأسـتاذ «إلهامي بولس»، وقلت له إنني قادم من «الأقصر» بـ«الموتوسيكل». و.... وحكيت الحكاية. وقال لي: والله انت مغامر يا أسـتاذ «أشـرف». فقهقهت حتى كدت أنقلب على قفاي.

أخذت نسخ مجموعتي القصصية «الفرس ليس حرا» من الدار، وضعتها فـي «كرتونة»، وربطتها بشـبكة «الموتوسـيكل»، خلفي، وسـألت الأسـتاذ «إلهامي»: كيف الطريق إلى الزراعي السريع؟

عدت إلى «الأقصر».

بحسبة بسـيطة أجدني قطعت مسافة ألف وأربعمائة كيلومتر فيما يقرب مـن أربعيـن سـاعة، لـم يتخللها إلا إحدى عشـرة سـاعة، هي التـي قضيتها فـي «القاهـرة». وفكـرت في إن كنـت قد حققت رقما قياسـيا فـي الركوب المتواصل على «موتوسيكل»؟

لم يكن مهما بالنسـبة لي الدخول في موسـوعة «جينيس»، وإنما تحقيق حلم عاش معي طفولتي، ومراهقتي، وشـبابي، أن أركب فرسـا وأطير به في البراح مثل كابتن «زورو»، وبشكل ما تحقّق هذا الحلم، وهذا هو المهم.

أحمدك يا رب.

«الأقصر» 2012م

صافرة القطار يا " هيلينا "

فارقتني «هيلينا» في «الإسكندرية».

كنت قد قضيت معها هناك أربعة أيام، خلال أحد المؤتمرات الأدبية، نتجول في جهات الحب الأربعة، وتغسل صدئي بصوتها الشبعان هوى، وكنا قد نوينا الرحيل إلى بلادنا في «الصعيد» سويا، لكن العزَّال تدخلوا، ورغم أنهم كانوا من أهل القلم، إلا أنهم لم يكونوا من أهل الصدق، يكذِّبون في الحياة الدنيا ما يكتبونه على الورقة، فرسان الخواء، ونساء الحمل الكاذب، فسافرت وحدي إلى «القاهرة»، وسافرت هي معهم، لا أدري إلى أين، وعلى رصيف ثمانية وقفت أنتظر القطار.

لم يأت قطاري بعد، لكن قطارات أخرى أتت، وقطارات ارتحلت، التي صافراتها تتقطّع مثل زغرودة هي قطارات الوصول، فرحة بالقدوم من بعيد إلى المنتهى المراد، والتي صافراتها تمتدّ مثل نحيب أمٍّ غارقة في عدودة هي قطارات الرحيل، تبكي الفراق، يؤلمها السفر، والآن، وأنا واقف في مساء تلك الليلة البعيدة على رصيف رقم ثمانية، كل القطارات تعوي، كل القطارات قطارات رحيل، وصافراتها تنشرخ، وأنا أنظر إلى بدر مصفرّ يعبُر

مريضا عتمة سماء العاصمة، أعرف، أنا أعرف أن كل الدنيا حزينة من أجلي، أنا الذي أقف وحيدا، ليست بصحبتي «هيلينا».

- «أشرف».

هذا صوتها!

- «أشرف».. «أشرف».

وأنظر ناحية الصوت القادم يتراقص مثل زهر الربيع في نسائم الليل، و«هيلينا» تظهر من بوابة بهو المحطة تهرول نحوي، «هيلينا»!

«تعرفين يا هيلينا! كل القطارات وقت ظهورك أطلقت صافراتها المغردة، كلها كانت قطارات وصول، والبدر أضاء حليبيا ناصع البياض، وسماء العاصمة توهجت بالحلك، وقلبي سكن، هذه اللحظة يا هيلينا كانت لحظة كشف، تجلى فيها حبي لك، وعرفت حبك».

مضت السنون، ومضت معها «هيلينا»، وفي كل سفر إلى «الصعيد»، أقف وحيدا على رصيف ثمانية، في نفس المكان الذي سمعت فيه صوت «هيلينا» وهي تناديني: «أشرف».

يتقدم القطار، بطيئا، ليقف أخيرا، وأجلس على الكرسي، أتابع حركة الراكب والنازل، وأتهيأ لسفر طويل حتى «الأقصر»، من سيجلس بجواري؟ جلست «هيلينا» بجواري مرة واحدة، كانت كفيلة لتجعلني أهتم، في كل مرة أركب القطار، بسؤال نفسي عمن سيجلس هنا، وسأظل أسأل نفسي هذا السؤال حتى الموت: هل ممكنٌ، في يوم ما، أن تجلس «هيلينا» بجواري مرة أخـ....

تحرك القطار، وعندما ارتجّ على حديد أحد المفارق، سمعت صوت «حمدي أبو جليل»، وكان رئيس تحرير مجلة «الثقافة الجديدة»، ينسلّ من حنجرته البدوية عبر سماعة الهاتف: أتمنى لو تكتب للمجلة موضوعا عن «الصعيد».. بالتحديد «الصعيد» الذي من أول «أسيوط» وحتى «قنا».

تذكرت «جمال الغيطاني» زمان، لما طلب مني الكتابة عن أسواق «جهينة» لـ«أخبار الأدب».

يمكن أن أجعل السوق هو المدخل إلى «الصعيد»، أسواق القرى المنصهرة بشمسنا المشتعلة تختلف، تتشابه أسواق «الصعيد»، في كل سوق لابد من وجود تجار للبقر والجاموس، وتجار للماعز والغنم، وآخرين يبيعون الحمير، وجزار يبيع اللحم الطازج، بينما يلتف حوله الزبائن في خشوع، ينتظرون منابهم، وهم يستظلون بعمائمهم الملفوفة فوق رؤوسهم بعناية، والقهوجي ينصب غرزته في أحد الجوانب، ويعد الشاي، والحلبة، والزنجبيل، والقرفة، ويشعل جمر الجوزة، وبائع الأقمشة التي يطلبها الرجال، بماركاتها الإنجليزية، رغم بساطة الحال، وقلة الأموال، والذي يطوف بعصا علّق عليها أكياس حلوى «شعر البنات»، يصنع بهجة الأطفال.... آآآآه يا «هيلينا»! والله يمكن أن أكون رأيتك في أحد أسواق «جهينة»، حيرني لدرجة الجنون شعوري بأني قد رأيتك قبل أن ألقاك، أول مرة، على شواطئ «الإسكندرية»، لكن لم أعرف أبدا أين كان هذا! الآن عرفت، كانت في أحد أسواق «جهينة» بنت تحمل ملامحك السمراء، وتبيع الورد.

«الورد؟! الورد لا يباع في أسواق الصعيد يا تائه، أنت أحمق، وأنت من فرطت في هيلينا، والورد لا يباع في أسواق القرى، وهيلينا باقية في قلبك لتعذبك».

أخرجت من حقيبتي رواية «تقاطعات الموت» لـ«ساراماجو»، أهدتها لي البنت المبدعة «نهى محمود»، وقالت لي إنها رواية ستعجبني، تحاول أن تصل علاقتي بـ«ساراماجو» بعد أن قطعتها بسبب روايته «الآخر مثلي»، فقلت أقرأها في هذه الرحلة الطويلة.

لكن ما الذي يجب أن أكتبه عن «الصعيد»؟!

ضحك «أحمد الجعفري»، وهو يقود سيارته منطلقا بنا إلى مطعم «فرحات» بـ«المهندسين»، لما قلت له إنني أقرأ عن «الصعيد» لكتابة مقالة عنه، وقال: تعيش في «الصعيد» أربعين سنة وتقرأ كي تكتب عنه!؟

من يقول لك إن أصحاب المكان هم من يعرفونه أفضل فقد أخطأ، ربما يعرفون تضاريسه، وجغرافيته، وتاريخه، أفضل من الجميع، لكن المكان بمعناه الأشمل، روحه، وجمالياته، وإيحاءاته، يعرفه من يحيا خارجه أفضل من أصحابه، وعندما كنت أمشي في شارع «المعز»، مع «محمود حامد»، قلت له: كيف لم تكتب عن هذا المكان؟ كيف لم تكتب عن أسوار «القاهرة»؟ عندكم كنز وتتركونه!

ولما قلت لـ«أمينة زيدان» ما جرى بيني وبين «محمود حامد»، فتحت فمها مندهشة، وقالت بدلع: آه والله صحيح!

ونسيت أني عشت عمري كله في «الأقصر»، ولم أكتب كلمة واحدة عنها، وهي أمّ المدائن الأسطورية، صانعة أعظم تاريخ!

العابرون هم من يكتبون المكان.

يجب أن أتصل فورا بـ«أبو جليل» كي أبلغه بعدم مقدرتي على الكتابة عن «الصعيد».

عندما أرى الكباري العلوية، التي تماثل الكباري المنثورة في «القاهرة»، من نافذة القطار، تنساب في مشارف مدخل المدينة، أعرف أن هذه المدينة هي «أسيوط»، وعندما يدخل القطار محطتها أشعر ببعض الارتياح، فلقد انتصفت الرحلة، ولأن القطار يتوقف هنا وقتا طويلا، نسبيا، أفضل النزول إلى الرصيف، لأشم الهواء، وأفك عظامي.

«أسيوط» بلد الكآبة، والعذاب، والموت، مات عم لي في مستشفاها الجامعي، وابن عم لي مات بعد رحلات عديدة إليها لطلب العلاج من سرطان المثانة، وذهب إليها عم آخر يعاني من آلام في ظهره، وعاد منها لا يعرف كيف يمشي معتدلا، وهنا قتل «متولي» أخته العاشقة «هيلينا»!

«هيلينا»، لمّا تركت العزّال في «الإسكندرية»، وجاءت لي على رصيف رقم ثمانية في «باب الحديد»، كانت تكرر نفس ما فعلته من قبل، زمان، عندما تركت العزّال في «جرجا»، وجاءت إليّ لنرحل إلى آخر بلاد المسلمين، ظننا آخر بلاد المسلمين هي «أسيوط»، واكتشفنا أنها لم تكن كذلك، بل أبعد من ذلك، كانت «أسيوط» آخر بلاد الحياة لـ«هيلينا»، التي لم تظن أبدا، وهي تفتح باب البيت للطارق، أنها ستجد أخاها «متولي» يطل عليها بعيني «عزرائيل».

موج البحر يضرب صخور الشاطئ بدلال، كنت أجلس مع «هيلينا» على سور «الكورنيش»، وهي تحكي لي عن لحظة القتل، وكيف أن «متولي» وجّه نصل سكينه بالتحديد إلى قلبها، قالت: وقتها يا «أشرف» سال دمي متوهجا بالحمرة، وضّاءً، ورائحة مسك «العنبر» تفوح منه، رائحة حبك، لم أشعر بألم، فقط كنت أتمنى وقتها لو تكون أمامي، تمدّ يدك وتتلقف روحي الطالعة.

«يا بحر اسكندرية، يا بحر يا هادر، ربما لهذا السبب كلما مشيت في شارع الموسكي، وشممت رائحة مسك العنبر، يرتعد جلدي، ودموع تملأ مقلتي؟».

«سراماجو» تحدث، في «تقاطعات الموت»، عن عالم لا يموت ناسه، كرهت هذا العالم، يقيني أن أجمل ما في العالم هو الموت، لأنه حلّ مشكلة إنسان يشيخ في كل لحظة، الجحيم نفسه هو أن تتردد أنفاسك في عالم ليس لك مكان فيه، ولا دور سوى أن تتحول إلى قفة من لحم مملوءة بعظامك، لكن العالم من غيرك يا «هيلينا» أصعب من الجحيم، ولابد من أكتب عالما لا يموت، أضعك فيه فتبقين خالدة، ليلتفّ حولك كل عازفي «الربابة»، وكل نافخي «المزمار»، وكل ضاربي «الطبل البلدي»، ويغنوا حكاية قلبك، وحكاية حبي.

قالت «نهى محمود»، وصوتها يمرح في سماعة هاتفي: الرواية ستعجبك جدا.. «سراماجو» مجنون.. وأفكاره لاسعة.. الناس لا يموتون! تصور!

قلت لها: هذه فكرة رواية دنت فتدلت.. حتى إذا كانت قاب قوسين أو أدنى من روحي.. مد يده ابن الحرامية وخطفها قبلي.

الموج يتكسر على الصخور، والبحر يتهيأ لشمس المغيب، وشفق كئيب، و«شفيقة» تنحدر من عينيها دمعتان تنسابان إلى شفتين تبتسمان نصف ابتسامة.

قالت «شفيقة»: على ضفاف «أسيوط» تحطم حلمي الكبير.

القطار يتحرك، وتنزاح تدريجيا مباني المحطة الكالحة إلى الوراء.

أقول لك يا «هيلينا» إن حلم شيخ العرب «همام» تفتت أيضا في «أسيوط»، لما انهزم جيشه أمام مماليك «علي بك الكبير».

كان جيش «همام» آلافا من رجال «الصعيد» المدربين، بالكاد، على القتال، يدفعهم الحلم بـ«صعيد» مستقل عن ظلم من جاءوا عبر أسواق النخاسة، كان شيخ العرب «همام» يحلم بسلطنة «الصعيد»، من «أسيوط» وحتى «الشلالات» في الجنوب، بينما «علي بك الكبير» يحلم بالمملكة المصرية كلها، من «الشلالات» وحتى «اسكندرية»، حلم «علي بك الكبير» أكبر من حلم شيخ العرب «همام»، وصاحب الحلم الأكبر دائما ينتصر، حتى وإن كان الحلم الأصغر حلما أنبل.

ليست الخيانة، إذن، هي سبب هزيمة «همام» في «أسيوط».

رجل يدفع أمامه «سيرفيس» بوفيه القطار في الطرقة الضيقة داخل العربة، وينادي بصوت هامس على محتويات الـ«سرفيس»، أخذت منه شايا.

في «أسيوط» تحطم حلم آخر كبير، عندما انهزم رجال «الصعيد» مرة أخرى أمام نصراني حارب لصالح الفرنسيين لما احتلوا «مصر»، اسمه «يعقوب حنا»، الجنرال «يعقوب حنا»، كانت قوته تحمل الخيانة، وآلات

قتل فرنسية جبانة، تقتل الناس عن بعد، ورجال «الصعيد» يحملون سيوفا، وطواريَ، وبلطا، وليس بالشجاعة وحدها تنتصر الجيوش، الأهم الخيانة، أو الخديعة!

بكت «هيلينا» فتطبّق قلبي، قالت: ألا ترى نفسك يا حبيبي!؟ مشبوحا على الصليب، سلّمك «الحاقد» للحاكم الروماني، ليس لشيء سوى لأنك مخلص للحب.

وشهقت، وصوتت برنة تفلق الحجر، وتعلقت بقدميّ المثبتتين إلى الخشبة بمسمار، فكسا كفيها دمي الحار، ونادت، فتقلب صوتها في السماوات: يا مسيحي، يا مسيحي.

همستُ، وآخر قطرة من روحي تزحف من ركن ضيق بين شفتي، منسابة كلؤلؤة سيالة: يا «مريم المجدلية».

«أسيوط» كنيسة «المسيح» في «مصر»، والـ «مسيح» صُلب، وآهٍ منكِ يا «أسيوط»!

أرشف الشاي، ربما كنت قادرا على الكتابة عن «الصعيد»، ربما القطار يمضي بي الآن أمام «جهينة»، والغرب البعيد، وحدود غيطان قريتي نجع «الخمايسة»، ربما القطار عبر النخلة التي تسلقتها خلف «هيلينا»، أطاردها مثل عصفور يطير وراء عصفورته، كنت أريد أن أقبّلها بين سباطات البلح، لكنها ناورت تماما مثل العصفورة، وهبطت، بينما بقيت معلقا بين السباطات، غير قادر على الهبوط، مثل عصفور خائب علق في فخ، وبينما عيناي تتقافزان في محجريهما من الفزع، كانت أذناي سعيدتين برنة ضحكاتها، وقلبي يتنطط بالفرح.

«سوهاج.. يا عروسة النيل.. سوهاج.. يا بلد الموايل».

تغنيها «داليدا» مثل عذراء سوهاجية عاشقة، تحب فتاها بالسمع، لا تراه، فتكتم حبها وتموت حية، أو تكيد لتراه، فتفشو حكايتها وتُقدّم للقتل، كسرت هذه القاعدة أنا وبنت عمي، فأنا الولد الذي سكن بندر «الأقصر»، يأتي كل عام مرة في إجازة المدارس الصيفية، فينزل في بيت عمه المحدوف داخل الحقول، البنت بيضاء مثل قمر، وعيناها غنج، تدعواني لقبلة بجوار عشة الحمام، شفتاها يا هنائي لو مصصتهما، ومعذور لو أكلتهما، والبنت بنت عمي، لو أخذها العريس على الفرس في ليلة دخلته، فمن حقي أن أدلّيها من على فرسه وآخذها على فرسي، وأخذتك يا «هيلينا» على فرسي.

الليل، وبحر «اسكندرية» يغرق في غموضه، ونسيمه يصفو، أنظر في عيني «شفيقة»، هادرتان بالقلق، وصارختان بالوجع، قالت لي: أوحشتني «جرجا»، لماذا مشيت في شارعنا يا «أشرف»؟ لماذا مشيت في شارعنا ونظرت إلى شباك بيتنا؟ لماذا نظرت إلى شباك بيتنا ووضعت عينيك في عيني؟ ولماذا لما وضعت عينيك في عيني رشقت حبك في قلبي؟ ما تعرف يا حبيبي أن الحب طائر مهاجر لا يستوطن بلادنا الحارة؟ ما تعرف يا روحي أن الحب في «جرجا» غربة وغرابة؟

يقف القطار على محطة «سوهاج»، ينزل ناس، ويصعد ناس، ويمر رجل «بوفيه» القطار بمنضدته المتحركة في الطرقة الضيقة داخل العربة، يأخذ كوبه الفارغ، وأدفع إليه نقوده، ويجلس قبالتي رجل ضخم مهيب، في جلبابه البلدي الواسع، وعمامته المزهرة الأنيقة، شاربه كث ومهذب، وبشرته مشدودة تكاد تكب دما، وعيناه واسعتان نافذتان، رجال «سوهاج» يحملون

جمالا خاصا، وتكسوهم مهابة العمد، ومشايخ البلد، رجال ينسلون من قبائل عربية تركت صحارى «نجد» لتطوف بلادا لم تكن للعرب، صارت لهم الآن بفضل تغريبات هذه القبائل، تغريبة قبائل «بني هلال» أشهر تغريبة، ويقال إن «بني هلال» أصل كل القبائل العربية التي نزلت في مختلف بلدان «مصر»، وعلى طول «الصعيد»، قبائل: «بنو سليم» و«جهينة» وغيرهما.

يقول التاريخ إن القبطي كان يقدم للعربي القادم أفخر ما لديه من طعام على صوانٍ، ويرحب به ترحيبا شديدا، وإذ كان يقدم للعربي الطعام، كان ينتظر أن يأخذ منه الإنقاذ، أن ينقذه من جور بواقي نظام الرومان المنهزمين، فكان القبطي يرحب بالعربي المسلم، والعربي المسلم ينجب كثيرا، ومعه أفراس الحرب، وسيوف القوة، وروح القتال، وليس مع القبطي غير دعةٍ، وحبٍّ سلام، ونفسٍ قهرتها عقيدته، قبل أن يقهرها الرومان الوثنيون.

الجنرال «يعقوب حنا» عندما حارب «الصعيد» لصالح «الفرنساويين»، كان يحارب المحتلَّ العربي لصالح المحتل الفرنسي، والمحتل الفرنسي أقرب نفسيا لـ«يعقوب»، لأنه مثله، يقدِّس خشبة اللعنة، لكنه لم يكن يعرف أن المحتل، وإن كان من بقية أهله، هو نفسه اللعنة.

«الصعيد» مهرب القبائل العربية، فهو الحاضنة المهيأة لاستعادة القوة، وهو الأصعب تضاريسيا، والأنسب طقسا، ولهذا هرب إليه المماليك بعد عداء «محمد علي» لهم، ولنفس السبب هربوا إليه بعد هزيمتهم أمام الفرنساويين، وهذا ما جعل شيخ العرب «همام» يفكر في سلطنته الخاصة.

«الصعيد» ميدان الخشونة، ومعترك الصراعات، لا يصلح بالنسبة للحب والعشاق، غير مذبح.

عربة القطار تكاد تكون فارغة، قليل من الركاب الغارقين في النوم، القطار يجري هاتكا حجب الظلام، وأنوار هشة، دقيقة، منثورة في سواد الحقول الفارة إلى الوراء، أشعر أن «هيلينا» هنا، داخل العربة، فأقف وأنظر على امتداد العربة، وهناك بجوار باب العربة، ظهرت رأسٌ مغطاة بطرحة مزوَّقة بالزهور المبهجة، «هيلينا».

«يا عبيط! إياك والذهاب إليها، ربما لا تكون هيلينا».

«لكن هذه الطرحة طرحة هيلينا، كانت تضعها على رأسها وهي جالسة بجواري على سور كورنيش بحر اسكندرية، وكان الهواء يرقِّص ذؤابتيها».

«اجلس يا مسكين، اجلس».

«سوهاج» بلاد الرزق الضيق، والفقر الواسع، ومشايخ العرب، والنصارى المطحونين، والعاشقة الجرجاوية «هيلينا».

لن يمكنني الكتابة أبدا عن «الصعيد»، ولابد من الاتصال بـ«حمدى أبو جليل» وإخباره برفضي للكتابة في هذا الموضوع.

«أسيوط» أكبر من أن أكتبها، «سوهاج» أوسع من أن أحتويها، و«قنا» بلاد العشق، وبلاد العزة، الموالد والرقاصات، وغرز الحشيش، وكاسات الخمور تُصب على أنّات الرباب، «قنا» الكسولة، وقبائل «هوارة» البربرية المغربية، الأنوف الشماء، والبطون الجائعة، والحملة الفرنساوية التي أغرقها الصعايدة القناوية في «النيل»، و«السمطة» التي تحيا على ضفاف بحور الدم.

«قنا» العذاب، و«قنا» مستشرف نسيم الحضارة المصرية القديمة.

نسيم «المسيح» يتضوع في سماء «أسيوط»، وعبق الفواكه الربيعي يسري في أجواء «سوهاج»، لكن في فضاء «قنا» الرحب تهبُّ رائحة الفراعنة.

أنا أحبك يا «هيلينا»، فلا تتواني أبدا عن جمع جسدي الذي بعثره «ست» الشرير في كل مكان تصل إليه أشعة الإله «رع».

يا «هيلينا» دمعة من دموعك لا تسقطيها على تراب خوَّان، يمتصها ثم لا شيء، وإنما اغسلي بها جسدي، فأنا «أشرف»، لم أحب يوما غيرك، لم ألوث نبع حُب، لم أسبب أذى لعاشق، يا «هيلينا»، يا روح هذا العالم، يا روحي المعلقة ثمرة طايبة في قلبي المهووس بك، يا عذابي.

«هيلينا»، يا قاتلتي بسكيني، اجمعيني، واحييني، لا تؤاخذيني أن ضيعتك يوما في مفازات عقلي، فأنت ربة، وأنا ابن عبد.

«إيزيس» قالت، بينما أنتصب واقفا من موتي المفجع: انظر يا «أوزور» كيف حطموا معابدنا، انظر إلى وجوه ملوك الفراعنة كيف كشطوها، آه يا «أمنحتب» الحبيب، ألقوا بتمثالك على الأرض، وكسروا رأسك وذراعك.

- من فعل هذا يا «إيزيس»؟!

- دمَّروا «طيبة»، ها هي شرفة بيتنا قد تهشمت، والأصص تناثرت، وانتزعت منها الزهور.

- من فعل هذا يا «إيزيس»؟!

- يريدون محو حضارتنا، يريدون محونا.

- من فعل هذا يا «إيزيس»؟!

- الرومان.

- الرومان؟! الرومان حضاريون يا «إيزيس»، لديهم معابد مثل معابدنا، مليئة بتماثيل آلهتهم؟!

- نعم يا «أوزور»، لكنهم الآن مسيحيون، لقد اعتنقوا دين «المسيح»، الذي يصف تماثيلنا بالأوثان.

يقولون إن «الإسلام» دين يخاصم التماثيل، لكن «عمرو بن العاص» فتح «مصر» فلم يطمس وجه تمثال، ولا أحد من المسلمين الأُوَل، الذين كانت قضيتهم الأولى نشر «الإسلام»، والقضاء على الوثنية، اهتمّ بنزع تمثال فرعوني واحد، كانوا يعرفون أن الإسلام ليس ضد التماثيل، وإنما ضد الأصنام التي تُعبد من دون الله، وهذه التماثيل الفرعونية ليست أكثر من تماثيل لآلهة صارت في ذمة التاريخ، وانتهت فعاليتها.

الجبل الغربي يبدو من نافذة القطار معتما، لكن انعكاسات المصابيح الضخمة الكاشفة التي تضيء معبد «حتشبسوت» تجعله يبدو، في الأفق، سابحا مثل سحابة.

- أنا بنيت لك هذا المعبد يا «هيلينا»، تذكارا لأعظم قصة حب في تاريخ العالم، أنا لا أبالغ يا حبيبتي، قصص الحب العظيمة هي تلك التي تكون نهايتها مصحوبة بمأساة، وهل هناك مأساة أعظم من قتل الحبيبين دفعة واحدة، أنا هندسته مُخبأً في حضن جبل «القرنة»، العشاق دائما خائفون يا «هيلينا»، وبنيته بين عالم الموتى، على مشارف الخلود.

اقتربت «هيلينا» مني، ومدت ذراعيها وحضنتني، وشفتاها دنت من لهيب شفتي، فاحتوته برضابها، وأطفأته، وقالت: شكرا لك يا «سنموت»، يا مهندسي الأثير، لكنهم يتآمرون على مليكتهم العاشقة، سيقتلوننا يا «أشرف».

- بنيت معبدنا يا «حتشبسوت» الجميلة، واستمتعت معك بدموعي الحارة، وكم انتشيت لقلبي الذي قطّعه بعدك وأنت في بلاد «بونت»، لقد أعطانا الحب أعمارا طويلة يا «هيلينا»، وإذا متنا معا فأهلا بالروح القاتل، يحملنا على جناحيه إلى سماء الخلود.

القطار يدخل محطة الوصول، «الأقصر»، لكن صافرته لا تزغرد، وإنما تئن بترنيمة حزينة مثل عدودة.

وأنا أسحب حقيبتي من على الرف، نظرت إلى الرأس المغطى بطرحة الزهور، مازال في مكانه يتكئ على مسند الكرسي، رأس «هيلينا».

«يا عبيط، ربما لا تكون هيلينا، امض في طرقة العربة إلى بابها للنزول، ستمر بجوارها، ربما يدك تحف كتفها، لكن إياك أن تنظر إليها».

مررت في الطرقة الضيقة للعربة المكيفة، كانت الزهور تبرق أكثر بألوانها الزاهية كلما اقتربت، وأنا أعبر صاحبة الطرحة، حف ذراعي كتفها، ارتعدتُ، وسالت دموعي، لماذا لا أنظر إليها؟ لماذا نضطر إلى أن نكون مجرد عابرين على الأحبة؟

«العابرون يا خمايسي هم فقط من يعرفون حقيقة الأمكنة، والحبيب مكان، والمحب يظل أسطورة العشق، طالما هو مجرد عابر».

وقفت على رصيف محطة «الأقصر» ذات الطابع الفرعوني، أنظر إلى القطار، بداخله «هيلينا» التي بالتأكيد رأتني، ولم تناد عليّ!

يطلق القطار صافرته التي كرهتها، ويتحرك متثاقلا، كدموعي المنحدرة إلى زاويتي شفتي، وعندما مرت أمامي تلك النافذة رأيت «هيلينا».

كانت «هيلينا»!

«يا عبيط، لماذا لم تمض وراء إحساسك، ومضيت خلف خوفك، يفوز باللذات من يصدّق أحاسيسه».

القطار يسرع من حركته، لكني جريت نحو النافذة، بالكاد وصلت إليها، نظرت «هيلينا» إليّ، كأنها شهقت، عيناها اتسعتا، وانفتح فمها، شهقت.

زعقتُ: «هيلينا»، سأنتظرك على رصيف ثمانية في «باب الحديد».

كان القطار يبتعد، ووصلت إلى منتهى الرصيف.

أخرجت هاتفي، وطلبت «حمدي أبو جليل»، قال بصوته البدوي المضعضع: أيوه يا «خمايسي».

- لن أستطيع الكتابة عن «الصعيد».

وأغلقت الخط.

«القاهرة» 2013م

أنا الأديب

كانت ليلة عصيبة.

نعم كانت ليلة عصيبة، فلقد سيطر عليَّ هاجس فظيع، نعم، هاجس فظيع.

فما أن فرطت جسدي على السرير، بعد منتصف هذه الليلة، حتى اجتاحني هذا الهاجس، المريع، المرعب، المرهب، المفزع، المروع، المدهش، المذهل، المذل، سأموت الليلة، سأموت الليلة، سأموت الليلة!

- يا سيدي.. كل الناس يموتون.. الموت أسهل مما تتصور.

يا غبي، الناس لا يموتون لأن الموت سهل، إنهم يموتون رغم أنوفهم، أنا مثلا لا أريد أن أموت أبدا، فالحياة جميلة فعلا، نعم والله، الحياة جميلة جدا، إنها ممتلئة بطوابير الخبز، وطوابير اسطوانات الغاز، ومشحونة بالازدحامات في وسائل المواصلات، وفي مباني المصالح الحكومية، وفيها الصيف القائظ، وفيها زمهرير الشتاء، وفيها حالي الشخصي المشندل، دخل قليل، ومنصرف كثير، وديون بالطن، وزوجة واحدة، وثلاثة عيال، وشقة ضيقة، وهم واسع.

- والله أمرك غريب! كل ما ذكرته من مواصفات للحياة يجعل الموت جنة وبغددة!

إذا عرفت فعلا ما هو الموت، ستدرك أن هذه المواصفات نعيم.

- أنا أعرف الموت.. الناس كلها تعرف الموت.. حتى الأهبل والعبيط.

مـا أهبـل إلا أنت، وما عبيـط إلا أبوك لأنه أنجب مثلـك، وما تعرف من الموت غير أنه خروج الروح ودفن الجِثّة، ويا ليته كان كما تظن.

- وهل الموت غير ذلك؟!

نعـم، الموت حكايـة طويلة، حكاية طويلة بائسـة، حكاية طويلة بائسـة جدا، وحتى تفهم بعضها، قليلها، لا بد ابتداء من فعل شيء.

- ما هو؟

أن تموت أولا يا روح أمك!

- تريدني أنتحر؟!

أريـدك تتخيل نفسـك وأنـت تموت، هل تسـتطيع تخيل نفسـك وأنت تموت؟ ممكن، والله ممكن، فقط خذ المسألة بجد.

- كيف يا ابن المجنونة؟!

هكـذا، تمدد على فراشـك مريضا بالسـرطان، أو بسـكري تهاونت معه فافترسـك، أو بأي مرض قاتل، المهم تمدد الآن في فراشك مريضا بأي داء سيوجه لك بعد قليل الضربة القاضية.

- أنا أفضل الموت في حادث.

لأنـك أهبـل، لكن دعنـا نختر المـوت بالطريقة التي يمـوت بها الغالب الأعم من الناس، مرض خطير، ونومة في فراش، والانتظار.

- طيب.. لما أرى لون ليلتك!

سوداء، وهل لليل لون غير السواد؟! تمدد، تمدد، وحاول أن تموت.

أن تكـون أديبا، أن تكون إنسـانا يموت، وكيـف لا يموت من يقتطع من روحـه فـي كل لحظة قطعـة؟! كل الناس يموتـون موتة واحـدة، و الأديب لـه موتـة مع كل دقة قلب، فـكل الناس يحيون حياة واحـدة، وهو يحيا حياة النـاس كلهـم، يالعذاب خروج الكتابة، أقف في مائـة طابور للخبز أريح لي من كتابة سطر، وأن أتمدد الآن في فراشي، وأموت، أبسط من أن أملأ ورقة بحبر قلمي، سأتمدد إذن، وأموت.

ها أنا ممدد في فراشي، ملقى على ظهري، أبحلق بعيني في فراغ سينشق حتمـا عـن ملك الموت وقد جاء يأخذ روحي، وبينمـا أنا أبحلق في الفراغ، كان هنـاك مـن يسـدد إليَّ نظرات رثـاء، أمي هـذه؟ أبـي؟ أم زوجتي؟ ربما أبنائي، ربما آخرون، ربما كل هؤلاء، مالهم؟ مالهم ؟ عيونهم تقول لي إنك تموت.

- أنا يا أخي لا أشعر بكل هذا!

لأنك تِلم، بلط، حاول تشعر أنك تموت فعلا، وأن الناس حولك ينظرون إليـك نظرات تُصر على أن توضح لك أنهم يودعونك الوداع الأخير، وأنك أنـت الـذي يمـوت، وليس هـم، وأن معنى هذا أنـك لن تسـتطيع، بعد هذه اللحظـة، أن تعتدل لتدلي سـاقيك وتضع قدميك فـي حذائك المثقوب كذا

ثقب، والمرتق كذا رتق، والذي كنت تكره العيشة بسببه، تخيل نفسك، بعد موتك، وأنت تدير رأسك بصعوبة كي تنظر إلى حذائك، وتتمنى لو تستطيع وضع قدميك فيه، تخيل كم سيكون حذاؤك جميلا وقتها....

– والفانلة الداخلية المقطعة.. والسروال.

نعم، نعم، اسخن معي، ها قد بدأت تشعر بأنك تموت، ما لـ «الفانلة» المقطعة والسروال؟

– أحسن من كفن جديد يا ابن المجنونة.

تقف في كم طابور اسطوانات غاز ولا يرى أحد سروالك الداخلي المقطع؟

– أقف في مائة طابور.

عورتك رخيصة لهذه الدرجة؟! أنا أقف طول عمري في طوابير ولا يرى أحد عورتي...

– طيب.. من أين تأتي بعمر آخر تقفه طوابيرَ كي لا يرى أحد سوأتك وأنت تموت؟

يا ابن الكاااااالب! تتكلم الآن كلاما عبقريا، نعم، سيكون الموت قاسيا لدرجة تجعلك تفعلها على روحك، و إن لم يحدث، سيضغطون على بطنك بعد الموت لتفعلها وأنت ميت، يصرون على إذلالك، والأدهى، والأنكى، أن أصابعهم سوف تعبث في مؤخرتك لتنظيفها، أقف مليون طابور عيش، بالإضافة إلى مليون طابور غاز، في عز نار الصيف، أو في عز زمهرير الشتاء، في مقابل أن أكون قادرا على تنظيف نفسي بنفسي.

– يخيل لي أن هذا الأمر ليس مهما كثيرا للأموات!

لكنه مهم للأحياء، و ليس أحيا من الأديب، وإذا أنا تمددت في فراشي، لأرقد الرقدة الأخيرة، لن يكون الموت نفسه هو ما يهمني، وإنما: ماذا أفعل كي لا تُستباح مؤخرتي؟ وكي لا يتأفف الآخرون من عُريي الملَّوث؟

ـ بسيطة.. لا تخرأ.

يا غبي، لو أنني سأملك أمر نفسي لن أفعلها قطعا، لكن الموت سيجبرني على هذا، ها أنت ترى كيف أن الموت فعلا مشكلة، تتعطر طوال حياتك بـ«البارفانات» ثم لا بد، وحتما، من أن يُشم منك، في آخر لحظات علاقتك بالدنيا، رائحة غير طيبة!

ما هذا؟!

تملأ الدنيا ضجيجا، وحركة، لأسباب تافهة، ثم تجد نفسك، في النهاية، لا تستطيع أن تدافع عن مؤخرتك، ولا أن تداري فعلتك.

ـ كلام معروف ومعاد ومكرر وممل.. بل اسمح لي بأن أقول إنه كلام مقرف أيضا.. أنت ستموت كما مات المليارات قبلك.. وستموت كما سيموت المليارات بعدك.. والحياة أقصر من أن نقتطع منها ما نقضيه الآن في عمل بروفات للموت.

تعني أن الحياة، مهما عظمت مصائبها، هي أفضل كثيرا من الموت؟

– طبعا.. ما من مصيبة إلا والموت أعظم منها .

إلا مصيبة أن تكون أديبا.

– اشمعنى؟!

قلنا اشمعنى، ولن أعيد.

- ما انتبهت.

طيب، اسمع وحاول تفهم.. أصحابي في دنيا الأدب قالوا لي: اكتب شهادة لتشارك بها في أحد المؤتمرات، قلت لهم وما الشهادة؟! أنا لا أعرف من الشهادات غير «أشهد أن لا إله إلا الله».

قالوا: هناك شهادات أدبية يكتب فيها الأديب عن نفسه، عن علاقاته بالزمان، والمكان، والأشخاص، يعني يسجل رؤيته للعالم من حوله، وكيفية تفاعله معه.

طيب، أنا أديب رؤيته أن كل شيء يبتعد، والموت يدنو، الزمن ينسحق بالموت، والمكان يتفتت بالموت، والأشخاص زائلة بالموت، لذلك الحق أقول لكم: الحقوا ابتسموا، والحقوا اضحكوا، والحقوا غنوا، والحقوا ارقصوا، الحقوا قبِّلوا العذارى، والحقوا احضنوهن، والحقوا اتركوا الكتابة، والحقوا احيوا كما يحيا العوام، ازرعوا ورودا، الحقوا ازرعوا ورودا، الحقوا ازرعوا ورودا كثيرة، نحتاج ورودا بلا حصر ولا عدد، نحتاجها لنضعها بجوار من ينتظر الموت، لعله يفهم فيقوم فيحشو بها جسده، رائحة الورود أفضل، قطعا، من رائحة جسد يموت..

«الأقصر» 2011م

عرائس "الماريونيت".. وأصابع الأشباح

التطاحن، بين الحضارات، يصنع التاريخ، والحضارات تصنعها صراعات الشعوب، والشعوب رغم ذلك، تبقى في ظن حكامها، الطرف الضعيف في معادلة السياسة.

الحكام لا يقرأون التاريخ، ولو قرأوه لأدركوا خطأ ما يظنون.

فالشعوب، غالبا، ما تهب فجأة بعد الصبر الطويل، لتطيح بتواريخ الاستبداد، ولتضع نقطة في نهاية الجملة الاستبدادية، لتبدأ في كتابة سطر جديد.

هكذا يُكتب سفر التاريخ!

ولقد وضع المصريون نقطة كبيرة، ورغم ذلك وُجد هناك من لا يريد لهم أن يبدأوا السطر الجديد، ويقاتل من أجل حصارهم في نفس القفص القديم، ولكن بمواصفات مغايرة قليلا، ليرضوا بثورة منقوصة!

ولن يرضخ المصريون لخدع جديدة، فهم الأحرار أبدا، الأعزاء وإن أحاط بهم الذل، الأغنياء بالتعفف وإن عشش بينهم الفقر، حتى إذا وصل الأمر إلى أن يظن حاكمهم أنه قد استعبدهم، استعادوا روح «أحمد عرابي»،

وهتفوا بنفس حماسه القديم: والله لن نُستعبد بعد اليوم، وقد ولدتنا أمهاتنا أحرارا.

مساء يوم «الأربعاء»، 18 «إبريل» 2012 الميلادي.

كنت جالسا، في إحدى قاعات اتحاد الكتاب المصري، أنتظر انتهاء أحد الأصدقاء من اجتماع عقده الاتحاد لمناقشة ما جرى في فعالية انعقاد الجمعية العمومية.

كانت تجلس معي سيدة حسناء، قدمت لي نفسها، الشاعرة «أميمة إسماعيل»، تكتب القصيدة العامية، قدمت نفسي لها، وبعد جمل تحاورية قصيرة، وبعض المداعبات لطفلتها الصغيرة، اندفع الحوار في اتجاه الواقع الذي تعيشه «مصر»، فسمعت منها تصورا مدهشا، مفرط الغرابة بالنسبة لي.

لم يكن المدهش هو اعتقادها بأن «المجلس العسكري» هو المسؤول عما يحدث في البلد من قلاقل على امتداد عام ونصف، ولا لأنها تراه يلعب ألعابا سياسية قذرة، بتحالفه مع التيار الإسلامي ضد صالح البلد، ولا لكونها تعتقد أنه يمارس مهمة معينة لصالح «أمريكا» الساعية لصناعة «شرق أوسط» جديد.

كان المدهش، جدا، تصورها، الذي تؤمن بصحته إيمانا لا يتزعزع، أن «المجلس العسكري» هو الذي صنع ثورة 25 «يناير»! ومع سبق الإصرار، والترصد.

فتحت فمي وأنا أبحلق عيني! فأقصى ما أعرفه عن نبل «المجلس العسكري» هو حمايته للثورة في مراحلها الأولى، لكن أن يصنعها، وعن عمد!؟ هذا هو المدهش حقا.

قالت «أميمة»، متحدثة عن نفسها باعتبارها واحدة من الثوار الذين رابطوا في «التحرير» منذ يوم 28 «يناير» 2011م وحتى جمعة «النصر»: كانت غاية أمانينا، كثوار، تحقيق ثلاثة مطالب:

1 ـ حل «مجلس الشعب» المزور لصالح التوريث.

2 ـ محاكمة «حبيب العادلي»، وزير الداخلية، والتحقيق معه في جريمة مقتل «خالد سعيد».

3 ـ العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية والعيش بكرامة.

كانت هذه مطالبنا وفقط، وكانت ستبقى هي مطالبنا وفقط، لولا ما جرى من حوادث تصعيدية، فُرضت علينا.

زررت عيني، ورفعت حاجبي.

قالت: «المجلس العسكري» ضرب الثوار بـ«القناصة»، وأسقط قتلى، وأشعل الموقف، ليتحول الأمر من مجرد «مظاهرات» تطالب بمطالب عادية، إلى «ثورة» تطالب بإسقاط النظام كله.

قلت: لماذا؟! قالت: ليسقط النظام.

قلت: لماذا؟! قالت: الجيش لم يكن راغبا في التوريث، خاصة لـ«جمال مبارك»، كان «طنطاوي» لا يطيقه، وكان «جمال» لا يطيق «طنطاوي».

قلت: الانقلاب العسكري كان حلا أقل كلفة!

قالت: ثورة شعبية يحميها الجيش حل أشيك يقبله العالم.

وقالت بأسى: اكتشفت أننا كنا مجرد عرائس «ماريونيت»، يحركها «المجلس العسكري» بأصابعه، من خلف حجاب.

لم تقدم «أميمة» أدلة قاطعة تثبت صحة تصوراتها غير «قراءة الواقع»، قالت: الواقع هو الدليل الوحيد حتى الآن.

مالها أصابع الاتهام تتشنج متجهة إلى «المجلس العسكري»، تكاد تفقأ عينيه؟!

لقد آمنت بـ «الجيش» حاميا للثورة، وفرحت بـ «المجلس العسكري» وهو يتولى شؤون البلاد، والعباد، في بر «مصر»، كأول حاكم مؤقت، سيقضي معنا فترة البحث عن الاستقرار بعد الثورة، ثم يمضي إلى حال سبيله مشكورا، لم أنس أبدا هذه اللحظة البارقة التي أدى فيها اللواء «الفنجري» التحية العسكرية لأرواح الشهداء، على شاشات فضائيات العالم، إنها لحظة أدخلت «المجلس العسكري» إلى قلوبنا مزفوفا كعروس معطرة.

وبدأ «العسكري» العمل، وظهرت الأخطاء، لكن دائما كان لها عندي التبرير المبني على حسن الظن، «المجلس» عسكري، ليس سياسيا، وأخطاؤه ليست من هذا النوع المبني على التآمر، وإنما لكونه ليس له في السياسة! لم أصدق يوما أنه من الممكن أن يتحالف مع أية تيارات لحسابات خاصة به، خاصة التيار «الإسلامي»! فهذا الأخير دائما التيار المنبوذ في أية

ألعاب سياسية! ثم إن بعض القرارات الجريئة صبت في صالح «المجلس العسكري»: التحول السياسي نحو «إيران» وعبور مدمراتها «قناة السويس». إجراء المصالحة بين فصيلي المقاومة في «فلسطين»: «فتح» و«حماس». إتمام صفقة الأسرى الفلسطينيين ومبادلتهم بـ «جلعاد شاليط». التوجه نحو «أثيوبيا» لحل مشكلة مياه «النيل». الاعتذار الرسمي الإسرائيلي عن مقتل الجنود المصريين. وأخيرا القبض على الأمريكيين، التسعة عشر، في قضية التمويل الأجنبي.

أعمال ملفتة في وقت قياسي، ثم العمل المهم، جدا، لبناء أول مؤسسة، مهمة، في الدولة بعد الثورة، «مجلس الشعب».

لقد أجرى «المجلس العسكري» أول انتخابات نزيهة في العصر المصري الحديث، وبشهادة العالم، فاكتسح التيار الإسلامي الصناديق، وحصد أغلب كراسي «البرلمان».

كان هذا مرعبا للتيارات غير الإسلامية، فضجت بالرفض، وظهر لأول مرة مصطلح «ديكتاتورية الأغلبية»! لكن «التيار الإسلامي» قرر عدم مناوأة «العسكر»، فـ «العسكر» لم يتدخل لإقصائه، فلماذا يصبح حجر عثرة في طريق الحاكم «المؤقت»، طالما أنه أظهر إيمانا نقيا بالله، وهيأ الطريق لشريعته كي تبدأ السيادة، عبر «مجلس الشعب»!

أتخيل الآن أن «المجلس العسكري» كان يبحث عن حل لمعضلة حبيبي «طرة»، والمركز الطبي العالمي، وكان يبحث أيضا عن حل لمأزقه هو شخصيا، الدماء الغزيرة التي سالت في عهده القصير للغاية، مما سيؤدي حتما لمحاكمته، والحل هو التعامل مع تيار متعقل سياسيا، يؤمن

بقيمة الحاكم الذي تجب له الطاعة، وينزله منزلته الأجل، وسيكون سهلا التفاوض معه من أجل خروج آمن له، ومستقبل مريح لـ «مبارك»، وزبانيته، بعيدا عن حقول السياسة، وكان ممكنا للمجلس العسكري أن يحقق مآربه، لولا هذا الطارئ المزعج، أصوات الميدان التي أزعجت «الإسلاميين» في «مجلس الشعب»، فأجبرتهم على الإنصات، ولأن الإسلاميين يعرفون، يقينا، أن لهذا الميدان الفضل الأكبر ـ بعد فضل الله ـ في وجودهم في «مجلس الشعب»، فقد قرروا أن يتحدثوا بلغة الميدان، ولو قليلا، وكان هذا، بدوره، مزعجا للمجلس العسكري.

«المجلس العسكري» الذي خرج «فجأة» من بؤرة احتراماتي له، لما أطلق سراح «الأمريكان» بطريقة غامضة، ومهينة للمصريين.

كانت، هذه العملية، هي المؤشر الحقيقي إلى أن المجلس يلعب ألعابا غير نظيفة بالمرة، ثم التصرف الأحمق الأخير: السماح لـ «عمر سليمان» بالترشح لانتخابات الرئاسة!

«عمر سليمان» مهندس العلاقات الخفية، والمعلنة، مع الكيان الصهيوني، وحليفه «أمريكا»، لصالحهما، بما هو ضار بكل مصالح «مصر» والوطن العربي.

«عمر سليمان» الذي عمَّر المطبخ الإسرائيلي بالغاز المصري، الذي يتقاتل المصريون من أجل الحصول عليه في طوابير طويلة.

كان ظهور هذا الوجه مرة أخرى على سطح السياسة المصرية، بعد الثورة، بمثابة اللطمة التي تلقتها الثورة على وجهها فأفاقت، لتتساءل: ماذا يريد المجلس العسكري؟

وكانت الإجابة واضحة جدا.

وليس أفضل من الميدان، بعد 25 «يناير» 2011م، للإجابة عن أسئلة يصنعها «الطغاة».

لابد من الحفاظ على الثورة، وتقرير المصير.

مساء يوم «الخميس»، 19 «إبريل» 2012 الميلادي

تجولت في «التحرير»، كان واضحا أن جمعة الغد ستكون حاشدة، حضور كثيف للناس، باعة جائلون يستعدون للسوق الكبير، هتافات الحناجر المشحونة بالحماس الغاضب، تردد جملا تحمل كل المطلوب:

قول اتكلم.. السلطة لازم تتسلم.

قول ماتخافشي.. العسكر لازم يمشي.

وجوه ملامحها «إخوانية»، اللحية النابتة بالكاد، والجبهة الموشاة بزبيبة الصلاة، ونساء محجبات ومنتقبات، ووجوه عادية، تمشي هنا وهناك، تعلوها الحيرة، وفي المتسع القريب من مسجد «عمر مكرم»، كانت منصات تُعد لأنصار رجل أكلته أنياب العسكر، قبل أن يفترسهم بأنيابه، الشيخ «حازم صلاح أبو إسماعيل»، كان الهتاف له بالاسم، فاتضح أن قضيتهم الأساسية ستكون غدا هي التعبير عن سخطهم من استبعاد العسكر له من سباق الرئاسة بتلفيقة غير بريئة، هم مؤمنون تماما ببراءة الشيخ من تهمة الجنسية الأمريكية لأمه، رغم الوثائق الأمريكية الدالة على ذلك، يقولون: لماذا تصدقون «أمريكا»؟

نقول: نحن نصدق الوثائق.

يقولـون: الأمريكيـة؟! ألـم تقدم «أمريـكا» عددا لا يحصى مـن الوثائق الكاذبـة التي تثبت وجود أسـلحة نووية في «العـراق» لتجعلها حجة لضربه واحتلاله؟

سـكتُّ. فالتسـاؤل فـي محله. ولأنـه من العجيـب ألا تعلـم دولة ذات سـيادة، أقصد «مصر»، بجنسـية أخرى لمواطنة، تعيـش داخل حدودها، إلا بواسطة أوراق الدولة الأخرى، أقصد «أمريكا»!

أنصار «أبو إسماعيل» هم أصحاب اللحى الطويلة، والشوارب القصيرة، أو المجزوزة: «السلفيون».

وهـا هـي منصة «الألتـراس»، أسـفل العمـارة الضخمة التـي تطل على الجامعـة الأمريكيـة، منصـة ضخمة، لا تنافسـها في الضخامة سـوى منصة «أبو إسـماعيل»، ويتجه إليها الشـباب وهم يهتفون: الجدع جدع.. والجبان جبان.. واحنا يا جدع.. هانموت في الميدان.

القوى المتصارعة تتجمع، لمواجهة قوة وحيدة، محجوبة خلف الستائر، تريد أن تحركها، بأصابعها، مثلما تحرك عرائس «الماريونيت»!

«الجمعة» 20 «إبريل» 2012م .

عنوانها: «حماية الثورة.. وتقرير المصير».

السـاعة الثامنة صباحا، أسير في شـارع «عبد الخالق ثروت» متجها إلى «التحريـر»، الشـارع هـادئ تماما، هاجع، لا سـيارات، لا نـاس، «القاهرة» صامتـة، سـكون الحذر، كأنهـا تتخوف من القـادم، وربما هـي مذهولة من

الحدث المؤلم، الذي جرى في غفلة من الشارع المصري، المهموم بالثورة ونتائجها: زيارة مفتي الديار المصرية، «علي جمعة»، لـ «سرائيل»!

انثنيت إلى شـارع «شـريف»، نفس الهدوء المـراوغ، وقبل أن أصل إلى «باب اللوق» صادفني مخبز إفرنجي، يعد الكحك، والخبز الفينو، وأشكالا وألوانـا مـن العجائن، اشـتريت ثلاث قطع من كحك محشـو بالشـوكولاتة والجبـن، اسـتعدادا لوقت سـأجوع فيه، ولأسـعار سـياحية يفرضهـا الباعة الجائلون، الذين اعتبروا «الميدان» مزارا سياحيا، ومكانا لاستغلال اللحظة الراهنة في سبيل تحقيق أعلى المكاسب.

مانشـيتات الصحـف مهتمـة تمامـا بمليونيـة «تقريـر المصيـر»، ما عدا صحيفة «التحرير» التي وضعت على رأس مانشيتاتها خبرا عن زيارة المفتي إلى «إسرائيل».

صحيفة أخرى، لا أذكر اسـمها، اهتمـت بتطورات إزاحة «حازم صلاح أبو إسـماعيل»، كان مانشـيتها الرئيسـي ينـذر بالخطر القـادم، خطر حقيقي بالفعل، أنصار «أبو إسـماعيل» سـيقدمون له «البيعة» بديلا عن «الرئاسـة»، والبيعة في الإسلام ليست بالأمر الهين، إنها تعني ببساطة شديدة: «الطاعة»، و«الـولاء» لأميـر قائد. إنها نقلة سياسـية فـي الصراع لا أظـن أن هناك، من اللاعبين، من كان يحسب حسابها.

ها هي «مصر» ستشهد، قريبا، افتتاح مكتب إرشاد آخر، إرشاد سلفي.

انثنيت من شـارع «شريف» إلى «باب اللوق»، وبينما أمشي الهوينى علا فـي ذاكرتي فجأة صوت صديقي «عمرو رضا»، رئيس تحرير مجلة «الثقافة الجديـدة»، كان محذرا: جهز رقمي على موبايلك لتتصل بي فورا إذا حدث

لك مكروه، أو احتجت لأي شـيء، لا تبق في قلب الميدان، كن دائما على الأطراف لتستطيع التحرك عند حدوث أي طارئ.

ضحكـت وأنا أقول له: وصيتي لك إذا أنا استشـهدت أن ترسـل مرتبي لأسرتي في «الأقصر».

ضحك: كفاية عليك الجنة، يبقى جنة وفلوس كمان؟!

قلت: الجنة لي، والفلوس للعيال، عشـمان أخـوك في المائة ألف جنيه التي قررها مجلس الشعب لأهالي الشهداء، يشبرقو العيال.

كان الشـعور العـام أن دماءً ستسـيل حتما في هذه المليونية، سيسـفكها «المجلس العسـكري» بواسطة عرائس «ماريونيت» أخرى، والهدف تأجيل الانتخابات الرئاسـية للاسـتمتاع بأطول وقت في الحكـم، من أجل تحقيق أكبـر قـدر مـن الأهداف غيـر المعلنـة، والخطـة سـهلة التنفيذ، هـا هم كل الفرقاء سيتجمعون في الميدان، وبعود كبريت صغيـر، من فتنة نتنة ضئيلة، تشتعل النار.

من «باب اللوق» استطعت أن أرى «التحرير»، وبالاقتراب كان السكون ينمحي، ويدخل الضجيج نشطا إلى طبلتي أذني، ثم تظهر خيام المعتصمين الثائرين، وناس كثيرون يتحركون مثل النمل.

لقد امتلأ الميدان والساعة لم تتجاوز الثامنة والنصف، صباحا، بعد!

وعلى حافة «التحرير» تفجر الضجيج، وصوت «عبد الباسط عبد الصمد» يلعلـع بالقـرآن الكريـم: «يا أخت هارون مـا كان أبوك امرأ سـوء وما كانت أمك بغيا».

الزحـام، والميـدان حقل غاية في الاتسـاع زُرع بالمنصات، والمنصات طارحـة لافتات، ولافتات تعلقـت بواجهات العمائر، وعلى تعريشـات من عروق الخشب أعدت، خصيصا، لهذا الأمر.

اللافتـات هـي أهم ما فـي «الميدان»، لأنهـا الصوت الإعلامـي للثوار، الصوت الوحيد الصادق، يحمل مطالبهم، وسخريتهم، ووعيدهم.

«الميـدان» أجمل بالثوار، وأبهـج باللافتات الملونة مثـل زهور الربيع، والشمس تشرق حارة، تنذر بنهار ساخن.

كل إعلام غير اللافتات كاذب بالنسبة للثوار، بل ومأجور.

واحد حمل لافتة صغيرة: احذروا الإعلام الكاذب.

وآخر يهتف فيردد الآخرون: يا إعلام بتكدب ليه؟ «أمريكا» دفعت واللا إيه؟!

والإعـلام، حتما، ضمن المنظومة الباطلة! فلقـد أخذ أحد الثوار يهتف باسم معين، فتردد المجموعة كلمة «باطل».

- «المشـير» / باطل... «سامي عنان» / باطل... «عمر سليمان» / باطل... «أحمد شفيق» / باطل... «عمرو موسى» / باطل... «الإعلام» / باطل... «الفراعين» / باطل... «البي بي سي» / باطل».

من الأفضل، كثيرا، أن أترك اللافتات تتحدث عن فحواها من غير تدخل مني، ليعرف القارئ، من غير توجيه، ماذا يطلب «الميدان».

* لافتة لـ «حزب العمل الجديد»: صورتان لـ «أحمد شفيق»، و«عمرو موسى» يدخن السيجار مبتسما كتب بينهما: لا لترشيح الفلول.. لا للمادة 28.

* لافتة أخرى لنفس الحزب: لا للمادة 28 التي تبيح تزوير الانتخابات.

* معا لحماية الثورة.. معا لتطهير البلاد من الفلول.

* معا لحماية الثورة.. تسليم السلطة 30 «يونيو».

* انتخابات رئاسية حرة ونزيهة.

* انتخابات رئاسية حرة ونزيهة.. الشعب لن يسمح برئيس من الفلول.

* لا لمرشحي النظام البائد.

* لافتة لـ «الجبهة السلفية» يظهر فيها «عمرو موسى» ضاحكا: وزير خارجية «مبارك» لن يحكم «مصر».

* ولنفس الجبهة أيضا: يسقط يسقط حكم العسكر.

* «مبارك» على السرير وأذنابه في التزوير.

* لافتة تحمل صورتي «شفيق» و «موسى»: لا للفلول.

* ولـ«الجماعة الإسلامية» عدة لافتات: لا للفلول.. لا لاستبعاد المرشحين الإسلاميين.. نعم لتعديل المادة 28.

* ولنفس الجماعة: نريد لجنة انتخابية نزيهة تشرِّف القضاء.

* ولها أيضا لافتة فيها صور لأعضاء اللجنة الانتخابية كتب عليها: كلاب «مبارك». لجنة التزوير الرئاسية.

* نفس الجماعة: ملاعين «مبارك».. لجنة التزوير الرئاسية.

* حركة «6 أبريل»: دستور «مصر» لكل المصريين.

* وللحركة أيضا: الدين لله.. والوطن للجميع.

* وأخرى: لا لهيمنة أي تيار على الوطن.

* ولـ «جماعة الجهاد والتحالف الثوري الحر» لافتة يظهر فيها «عمر سليمان» و«أحمد شفيق» مكتوب بجوارهما: لا لأكابر مجرميها.

* لنفس الجماعة.. وبجوار نفس الصور: لا لحراس التخلف والديكتاتورية والسلب والنهب.

* أيضا، وبنفس الصور: لا لكلاب العهد البائد.

* ثورة الكرامة.. سنحطم القيود.. يريدون اغتيال أحلام الجيل القادم.. كما اغتالوا أحلام الجيل السابق.. ولكننا أبينا إلا أن نحيا كراما.

* لافتة لـ «الثوار المسلمين».. مطالبنا: حل لجنة العار الرئاسية.. وتشكيل لجنة قضاة محترمين.. رفع الحصانة عن اللجنة العليا للانتخابات.. إلغاء المادة 28.. استكمال قانون عزل الفلول.

* «الجبهة السلفية»: يسقط يسقط حكم العسكر.

* لافتة تحمل مطالب ما أسمته بـ «الثورة الثانية»: إسقاط حكم «المجلس العسكري» ومحاكمة أعضائه على ما ارتكبوه من جرائم.. إسقاط لجنة الانتخابات ومحاكمة أعضائها لضلوعهم في التزوير.. إسقاط حكومة «الجنزوري».. تكليف مجلسي «الشعب»، و«الشورى»، بتشكيل حكومة ثورة مؤقتة لحين إجراء انتخابات الرئاسة في موعدها.

* لافتة تحمل أدلة عدم وجود جنسية أمريكية لوالدة الشيخ «حازم صلاح أبو إسماعيل»: قرار محكمة «مجلس الدولة» بعدم وجود أي جنسية أخرى لها سوى الجنسية المصرية.. شهادة «وزارة الداخلية» بأنها لا تحمل سوى الجنسية المصرية.. عدم وجود أي مستند صحيح يعتد به يدل على أنها تحمل الجنسية الأمريكية.. أقسم الشيخ «حازم»، ثلاث مرات، أمام المحكمة، واللجنة العليا للانتخابات، ومجموعة من العلماء والمشايخ.

ها هو التيار «الإسلامي» يطلب، في هذه الجمعة، ما أنكره على الثوريين منذ أقل من بضعة شهور، إسقاط حكم العسكر، ومحاكمة المجلس العسكري، والخلاص من حكومة «الجنزوري».

وآآآه يا زمان المحن، كأسك دوار، والطعم مرار!

منصة «الأولتراس» قاعدة لإطلاق الأغاني الوطنية، وهتافات الاحتجاجات المتقطعة، وقفت أستمع لـ «عبد الحليم حافظ»، وهو يغني «صورة»، بينما أنظر للوحة رسمت من غير عناية: خريطة «مصر» مرسومة بثلاث كلمات.. «مصر»، «مسلم»، «مسيحي»، تلتقي في نهر النيل، بفرعيه، بحرف الميم.

وفي خلفية المنصة لوحة ضخمة بعرضها، تحمل كلمة واحدة تمثل التحدي الأعظم: «مستمرووون».

وعندما استدار رأسي إلى اليمين قليلا، اصطدمت عيناي بلوحة رسمها فنان ثائر على جدار «الجامعة الأمريكية»: وجه واحد يتكون من شطرين،

الأيمن نصف وجه «مبارك»، والأيسر نصف وجه «طنطاوي». الصورة بارعة الدلالة، حتى أنها لا تحتاج إلى أي تعليق.

وعندما نظرت إلى أعلى، لأخطف نظرة ناحية الكاميرات المثبتة في الشرفات العالية، تنقل ما يحدث في «التحرير» إلى كل أنحاء الأرض، لفت نظري مشهد بدا غير ذي صلة بكل ما يحدث: امرأة، في إحدى هذه الشرفات العالية، تنظف «درابزين» البلكونة، وتنفض التراب عن جهاز التكييف، غير مهتمة حتى بالنظر إلى ما يجري تحتها.

ربما هي الوحيدة التي ليست عروسة «ماريونيت»!

«الكاريكاتور»، هذه المرة، سلاح إسلامي، في يد أنصار الشيخ «حازم صلاح أبو إسماعيل»، وكانت الرسومات رشيقة جدا، ودالة على ما يريدون طرحه، وهو الطرح المتفق عليه بين كل الأطياف الثورية وقتها.

كاريكاتور لجندي يبتسم بمكر، وهو يحمل طفلا صغيرا كُتب على صدره 25 «يناير»، يصوب إليه مسدسه قائلا: نفسك في إيه قبل ما اضرب؟

كاريكاتور لمدرعة، يبرز من برجها جندي، يصوب رشاشه ناحية شاب بسيط، يحمل علم «مصر».

كاريكاتور للواء «الفنجري» وقد سحب جانبي بذلته العسكرية ليظهر صدره مرسوما عليه صور لـ «مبارك»، و«موسى»، و«شفيق»، ويقول: أنا بحب الفلول.

كاريكاتور للمشير، وهو يلعب مع «مصر» لعبة مصارعة الذراعين، وفي خلفية الصورة «أوباما»، و«نتنياهو»، يشجعان «المشير».

كاريكاتور لعلبة سجائر، رُسم عليها «عمرو موسى» يدخن السيجار، وكُتب بجواره: الفلول ضارة جدا بالصحة.. وتقتل الثورة.

كاريكاتور للمشير وهو يستحم باستمتاع في بانيو مليء بالدماء، وقد كتب تحت الصورة: يا مشير اتلم اتلم.. واللاعايزها بركة دم.

كاريكاتور لـ «طنطاوي»، أيضا، وهو يؤدي التحية العسكرية لعلم مزدوج، أمريكي إسرائيلي، قائلا: كله تمام.. وفي انتظار تعليمات جديدة.

عندما اقترب منتصف النهار، كان الميدان قد اكتظ تماما بالثوار، انطلقت إلى كوبري «قصر النيل»، كانت الوفود، زرافات، تترى على جانبيه، وأسدا الكوبري الشهيران قد تمت تغطيتهما ببلاستيك أخضر.

انطلقت إلى «ماسبيرو»، ربما يكون هناك متظاهرون، فقوبلت بمئات المتظاهرين القادمين من محافظات الشمال، أوتوبيسات، وميني باصات، وميكروباصات، بالعشرات، «المنوفية»، و«الشرقية»، و«الدقهلية»، و«الغربية»، «الإسكندرية»، و«دمياط»، جحافل البشر تروح إلى «التحرير» من ناحية «عبد المنعم رياض»، محافظات «الصعيد» كان لها تمثيل أيضا، وفود من «سوهاج»، و«أسيوط»، و«قنا»، و«أسوان»، رأيت وفدا من «الفيوم».

الهتافات تتصاعد في سماء ملأتها الغيوم فجأة، الشمس استحت من أن تلهب المتظاهرين فاختبأت خلف غيم لا ينقطع.

«يسقط يسقط حكم العسكر.. مصر دولة مش معسكر».

«بسم الله الملك الحق.. جينا نقول للظالم لأ».

عدت إلى «التحرير» بعد انتهاء صلاة الجمعة، الطبول تدق دقات الغضب، قرعها يرجُّ القلوب، وتهتف الحناجر: عسكر يحكم تاني ليه؟ ورثتونا واللا إيه؟!

الزحام، وثمة خطاط انهمك في كتابة جملة بيضاء كبيرة على الأسفلت: اللي هرَّب الخواجات..هيزور الانتخابات.

وموكب الدمايطة يصرخ: مسلم.. مسيحي.. إيد واحدة.

وتهتف لافتاتهم: كفنًا وشايلينه على إيدينا.. عشان «مصر» الغالية علينا.

المليونية احتدمت، وتشابكت مكبرات الصوت في كل الأنحاء، ما عدا منصة وحيدة أصرت على الصمت التام، واكتفت باللافتات، منصة «6 أبريل»، وعندما سألتهم عن السبب، قال أحدهم: المسألة مش هيصة وخلاص.. الكل عايز يتكلم.. يتكلموا.. إحنا هانسكت.. هانكتفي بالسماع.

رأيت «علي أبو شارب»، مهووس الثورة، الذي يرتدي، ويتطربش، علم «مصر»، ويحمل لافتة يطالب محتواها ببناء «مصر» على أساسين من علم وأخلاق، قال لي إن حفيده «أحمد عاطر»، الذي يبلغ من العمر تسع سنوات، طالبه من «الإمارات» بأن يشارك في الثورة، وألا يترك «التحرير»

أبـدا، ثـم سـألني : هـوَّا انت صحفـي؟ قلـت: نعم. قـال متعجبـا: طيب ما صورتنيش ليه؟!

هتافـات تمرق بجـوار الأذن كصاعقة: المحاكمـة المحاكمة.. العصابة لسه حاكمة.

وبينما يمرق أمامي أحد المشايخ الأزهريين بلباسه المميز، أسرعت إليه وسألته: ما رأيك في زيارة المفتي لإسرائيل؟

تريـث قليـلا قبـل أن يقـول وهـو يرفـع صوته: تصـرف فـردي لا يمثل «الأزهر».. لكنه تصرف خاطئ.

اتفق أكثر من عشرة من المشايخ الأزهريين، الذين تمكنت من سؤالهم، علـى خطـأ ما أقدم عليه المفتي، واختلفت التبريـرات، لكن أبرزها كان هذا التبرير: ماذا تنتظر من مفتٍ عيَّنه «مبارك»؟!

كانت لمصلحة الضرائب منصة! يهتفون برفض حكم العسكر لمصلحة الضرائـب، في إشـارة إلى «منيـرة القاضي»، زوجة «طنطـاوي»، وقد علقوا خلفهم قائمة سوداء بأسماء كبار الموظفين الفاسدين في الوزارة.

وكانت هناك لافتة لما يسـمى بـ«الجبهة الشـعبية لاستعادة أم الرشراش (إيـلات)»، تذكرنا بمرور 63 سـنة علـى احتلال «أم الرشـراش»، وتنبه إلى خطـورة بقائهـا في يد «إسـرائيل» على الأمـن القومي المصـري، والعربي، والإسـلامي، فهنـاك نشـاط ملحـوظ للغواصـات النوويـة الإسـرائيلية «الدولفين».

ولـم يعـد بإمكانية أحـد التحرك داخل الميـدان، لقد صـار مليون آدمي قطعة لحم بشرية عملاقة، ترتعش بالغضب.

وتعبت، فالساعة الآن الثانية بعد الظهر، سأذهب لآخذ دشا وأعود.

قابلتني في شارع «طلعت حرب» أطول مسيرة رأيتها، تتجه إلى الميدان، كانت لنقابة الدعاة، مضموما إليها تيارات شبابية أخرى، مسيرة بطول الشارع تقريبا، أين سيذهبون؟ ليس في الميدان متسع!

واغرورقـت عينـاي بالدموع، كانت المسـيرة تشـبه تلك المسـيرة التي مضت زاحفة في شـوارع «الأقصر» في جمعة «الغضب»، أمشي فيها وقلبي يأكلنـي علـى ولدي «محمد»، الذي يمشـي فـي المقدمة، نصرخ : الشـعب يريد.. إسقاط النظام.

تخـرج أصواتنـا مثل وحـش هصور، يريد أكل سـنوات الذل والخسـة، خرجنـا لنصنع أجمـل ملحمة إنسـانية، ولنحقق أعظم روايـة أدبية، لنموت وقد ذقنا طعما للحرية في وطن نملكه، وطننا.

رن هاتفـي، إنه «محمد» ولدي يهاتفني من «الأقصـر»: أيوه يا بابا، إنت في «التحرير»؟

لا أعـرف إن كنت أجبت على «محمد» أم لا، كنت منشـغلا في التفكير عن إجابة هذا السـؤال: هل كنا في الثمانية عشـر يوما، أيام العزة والكرامة، عرائس «ماريونيت» فعلا؟!

عموما، هاهي عرائس «الماريونيت» قد اعتصمت في ميدان «التحرير»، لا تحركها أصابع ما، وإنما تحركها روح حية، روح الرغبة في تقرير مصيرها

بنفسها، روحها المستعادة من فم الظلم. رأيي، الذي لن أحيد عنه أبدا، الشعوب ليست دمًى للعب، وإنما هي مكونات حضارية بالغة الحكمة، ترقب حكامها بعيون الفلاسفة، وتتعامل معهم بقلوب الأنبياء، حتى إذا ما رأتهم يتجهون إلى رسم تاريخ قبيح لا يليق بالإنسانية، أزاحتهم من على المسرح، مثلما تهش سيدةُ بيتٍ قروي بعض دجاجها العابث.

«القاهرة» 2012م

السِّـــر

كان زمان.. لا تقال كلمة «سر» إلا لـ«سر»، فكان لها وقعُ حادثٍ مجلجل.

- أقول لك سرا.

فينتبه الذي سيُسَر له انتباهة ابن «آدم»، في وقت الغرغرة، لملك الموت، ينسى الدنيا وما عليها، ويطرطق أذنيه جيدا، ويفتح قلبه وعقله، ويقول وقد قطب جبينه: هيه.. قُل.. سرك في بئر.

وفعلا، يكون السر سرا، شيئا ضاغطا على حياة المُسِر، شيئا ثقيلا يريد أن يشاركه أحد في حمله ليلقي به في أقرب مقلب قمامة، عند أول منحنى من منحنيات شوارع دنيا القلب.

وكان المُسَرُّ إليه دائما أمينا، يذهب عند أول بئر مهجورة، ليس فيها ماء، ويلقي السر فيها، ويردم عليه.

هذا كان في البدء، عندما كانت الكلمة لها وزن، وتخرج من حناجر رجال.

في هذه الأيام الغبراء، هناك من يرى طلوع الشمس من المشرق سرا عظيما! فيذهب بحمله، الثقيل، إلى رجل من رجال هذه الأيام الغبراء، ويقول له: عايز أقول لك سر.

والرجل الذي يُسَر إليه مشغول بمصائب الدنيا، مشغول إلى درجة أن لو جاءه ملك الموت ليقبض روحه لما انتبه، لذلك يقول وهو قرفان: اخلص قول.. دماغي اليومين دول مش رايقه.

فيقول المُسِر: بس الكلام داميطلعش لمخلوق.. في بير يعني.

فيقول له: في بير يا خويا.

ويفضفض الرجل، ويمضي، ويكون هناك من يراقب ميل الفم إلى الأذن، وفور ذهاب القدمين، تسعى قدمان أخريان، ويميل فم آخر إلى نفس الأذنين، ويفح: هوَّ كان بيقولك إيه؟

- عجيب أمرك يا أخي.. الرجل استأمنني على سر.

- إيه هوَّ؟

- قال لي إن الشمس بتطلع من الشرق!

هذا يجري الآن، لمَّا صارت الكلمة عِهنا منفوشا، يلعب بها أشباه رجال، لعب الصبيان بالكرة.

وإذا كان هناك، من الأحداث الضاغطة على روح المرء، ما يمكن الخلاص منه على هيئة «سر»، فهناك دائما ما لا يمكن البوح به، وقد يصل من الخطورة ألا يصح حتى أن يكون حديث نفس، وغالبا تكون هذه من أسرار زمن الطفولة، وربما تكون أيضا من أسرار المراهقة، وهي أسرار

حقيقية، من تلك النوعية التي ترقد في الأعماق البعيدة من روح الإنسان، ترقد بسلام، يتذكرها الآدمي فيضحك، وربما يبكي، لكنه يتعايش معها ببساطة، لأن مبرر ارتكابها معقول جدا، ومريح جدا جدا، يقول لنفسه: كنَّا عيال وقتها ومش فاهمين حاجة.

لكن العجيب، بالنسبة لي، أن للسر لون الليل، ما أسمع كلمة «سر» حتى أرى الليل وأحواله، فالسر حدث لا يجب أن يُرى، والأشياء لا تصير غير مرئية إلا ليلا، فهذا هو وقت الظلام، وما يجري في الظلام، أو يُدبر بليل، إما سخيف، أو مخيف، وكلاهما مقرف.

والسر ينتقل عبر النجوى، بالصوت الخفيض الهامس، وأنا لا أحب الأصوات الخفيضة الهامسة، وإنما أعشق الأصوات الواضحة، وكنت ذات مرة مع حبيبة سمراء، نجلس تحت ظل شجرة على الـ«كورنيش»، ناحية برج «القاهرة»، وكانت تهمس لي، وكنت أصخب لها، فقالت لي: وطي صوتك.. الناس يسمعونا.

قلت: علِّي صوتك.. خلِّي الناس يسمعونا.

فالصوت الخفيض، على ما أرى، أصحابه ثلاثة: إما ماكر أو ماكرة، وإما خائف أو خائفة، وإما مِسَهْوَك أو مسهوكة، وجميعهم أراذل.

وهناك صاحب سر الحروب، وهذا رجل داهية، لا يطيقه إلا من هو مثله، وهؤلاء يهرقون الدماء، ويهدمون ما بناه الله، ويخربون ما بناه الإنسان، يشربون الدم، ويأكلون لحوم البشر.

إنهم بشر لونهم هو اللون الأحمر القاني، لون مقيت لا أحبه.

لكن يبدو لي أن الأسرار الثقيلة على القلب، ليست تلك التي يُحمِّلك إياها الآخرون، وإنما هي تلك التي تُحمِّلها أنت لنفسك، ولن تستطيع أبدا أن تبوح بها لغيرك، هذه النوعية من الأسرار تبقى تصرخ في أعماق روحك، كيلا تشعر بسلام أبدا.

فكيف يمكن أن يتحدث امرؤ ما، عن أمه، وقد رآها، يوما ما، وهو طفل، تغلق باب البيت خلف أبيه، لتفتحه لرجل غريب، ثم تسحبه إلى غرفة النوم؟! هذا سر مهلك.

وهل يمكن لامرئ ما أن يتكلم عن حدث كان بمثابة نصل سكين رُشق في قلبه، يوم اكتشف أن لزوجته عشيقا يطارحها الغرام؟!

هل يمكن أن يتحدث عن ابنته، السافلة، التي ضحك عليها أحد الذئاب، فسلبها الغالي، والرخيص، دون أن يشعر أحد؟

هل يمكن أن يتحدث، هو نفسه، عن هذه العلاقة الملتهبة التي تتأجج بينه وزميلته في العمل، والتي أدت بهما للجلوس متخفيين تحت جدائل الأشجار الضخمة التي تخبئ تحت أغصانها أرائك العشاق؟

وهل يستطيع أن يتحدث عن انصياعه لنزوات مشبوبة، تدفعه دفعا لفتح المواقع الإباحية على الـ «نت»، ليرى العري الفاضح، المثير، والجنس الحداثي، الغريب؟

على أن الحياة قد لا تكون بنفس رونقها لو لم تكن تعج بالأسرار، بل ربما الحياة نفسها هي ليست أكثر من سر كبير، يقضي الإنسان عمره في محاولة فك رموز طلسمه، وهو مدفوع بحب الكشف عن المختبئ، وإظهار المكتمن، والوصول إلى نهاية ما. لذلك، حسب رؤيتي، يبقى المستقبل

دائما هو سر الأسرار الحقيقي، وعلى الإنسان أن يتخلص من هذا الوهم الكبير، الذي يجعله يعتقد أنه يصنع مستقبله، فالحقيقة أنه يكتشفه فقط.

وسيكون، هناك، عبر كل الأزمنة، أناس يحاولون دوما الاستفادة من أسرار الناس، من أجل ذلك يتعلمون كيف يتحولون إلى قراصنة، فيجيدون اختراق الذوات البشرية عبر العديد من الوسائل، مستغلين الشهوة التي جُبل عليها الإنسان، شهوة حب الفضفضة.

وقرصان الأسرار يمكن أن يكون صديقك الحميم، بحكم هذه الصداقة يظل يلح عليك في معرفة الأمر الذي يشغلك، وإذا لم تفضفض له يعيب على الصداقة الهشة، التي ما أمكنها أن تؤتمن على سر، ولا كانت مهيأة للإصغاء لبوح.

كما يمكن أن يتحور قرصان الأسرار ليأخذ شكل زوجة محبة، عطوف، لن يهدأ لها بال طالما رأتك تائها، سارحا.

لكن أسوأ قراصنة الأسرار هم هؤلاء الذين يغتصبون أسرارك باسم الله، وكان هذا منتشرا في ديانات كثيرة قديمة، طقوس تشبه الاعتراف في الكنيسة، حيث يجب أن تجلس للكاهن، وتحكي له عن بلاويك السوداء، لأن هذا سيطهر روحك أيها العاصي!

قال لي أحد المسيحيين الناقمين على الكنيسة: إنهم يعرفون أسرارنا لنظل دائما في حالة انكسار لهم.

وهناك، في ديانات أخرى، من يريد السيطرة على أتباعه بصناعة سر عظيم، فتنتشر تعبيرات مخيفة، مرهبة، مثل «سر الأسرار»، و«قدس

الأقـداس». عبارات تسـوقك، سـوقا، إلى التـزام حدك لو حـاول فكرك أن يغامر بسفينة العقل.

وهناك أسـرار في غاية الطرافة، ليست في أصلها بِسِر، ولا أحد يهتم بها إن كانت، بالفعل، سـرا. مثل سـر الوصفة التي تجعل البشـرة ناعمة. والسر الذي يوضع في وصفات بلدية ليهيج السعادة الزوجية. وسر الخلطة المتبلة التي يضعها «ماكدونالدز»، أو «كنتاكي»، أو «أبو شقرة»، في أطعمته. ثم هذا السر المهول، سر النجاح!

- طيب.. بس كدا!؟ هذا هو كل ما تعرفه عن الأسرار!؟

- لا.. يمكنني معرفة المزيد في لحظات.

- كيف؟

- سأخبرك.. لكن يجب أن يبقى ما سأخبرك به سرا.

- لك هذا.. هاه.. قُل.

- سأكمل بقية الموضوع من الـ «نت».

ليـس ما يدهش على الشـبكة العنكبوتية عن السـر، فليـس هناك جديد، لكن حكايات كثيرة، لا تحصى، عن الأسرار بمختلف فصائلها.

كتـاب «روندا بايرن»، فـي الموضوع بدا مختلفا، العنـوان على الغلاف «السـر»، والسـر الـذي اكتشـفته «رونـدا» هـو أن الإنسـان يملـك حقيقـة، لا خيـالا، مفتـاح سـعادته ونجاحه، فالعقل عنـده مهيأ لتحقيـق كل ما يحبه الإنسان لنفسه، لو فقط أحسن الإنسان توجيه عقله.

- إزاي يعني؟!

كـدا: وراءك ميعاد مهم، غدا، في السـاعة العاشـرة صباحـا. إذن لا تقل لنفسك: سأضبط المنبه.. أخشى أن أتأخر.

ولكن قل لنفسك: سأضبط المنبه لأذهب مبكرا.

مـا الفـرق بين الجملتين؟! تقول لك « السـت الهانـم» إن العقل يتعامل مـع اللفـظ، فهو لا يهمه مسـألة ضبـط المنبه، ولكـن تهمه كلمتـا «التبكير» و«التأخيـر». لـو لفظـت كلمـة «التأخيـر» سـتتأخر. بينما لو تلفظـت بكلمة «التبكير» ستبكر!

فـي الحقيقـة «روندا» وضعت يـدي على اكتشـاف مهم، يوضـح لماذا يتخبـط الإنسـان في دنياه، يبحث عن شـيء هو طول الوقـت موجود تحت قدميه! لأن الشـيء، الذي يجب أن يهديه إلى الصواب، نقصد عقله، اتضح من كلام الهانم أنه أحمق.

والكتابة سـر، لأنها تتعامل مع الكلمة، والكلمة سـر الأسـرار، ما عرف أحد من البشر حتى الآن، رغم اختلافهم على طبيعتها منذ مئات السنين، إن كانـت الكلمة من روح الله الأزلية، أم أنها مخلوقة، لكن المؤكد أن للكلمة سطوتها، فبالكلمة تسير أمور الإنسان، مستعظمها ومستدقها.

والأديـب هو هذا الواحد من البشـر، الـذي وهبه الله ملكـة التعامل مع الكلمة، أعطاه بعضا من سـرها، وبقدر ما يسـع صدره من هذا السر، بقدر ما تصير كتابته ألمعية، ومبهرة، لذلك لا يسـتوون، فليس كل أديب مبدعا، في حين أن كل مبدع أديب.

«القاهرة» 2012م

إيه " الحاكميَّة " دي يا افندم !

أوقعني الصَّديق، الشَّـاعر، «سمير درويش»، رئيس مجلس تحرير مجلة «الثقافـة الجديـدة»، وقت تاريـخ كتابة هـذه المقالة، في مـأزق كنت أحب الوقوع فيه منذ زمن!

فلقـد طلـب منِّي كتابة مقالـة تكون بمثابـة إجابة عن سـؤال، فـي غاية الأهمِّية، عمَّا إذا كان قد ورد في النُّصوص المقدَّسة في «الإسلام»: «القرآن»، و«الأحاديث الشَّريفة»، ما يُوجَّه إلى نظام محدَّد من أنظمة الحكم، مرتكزاته مُثبَتة بآيات كريمة، وأعمدته مغروسـة في أقوال صريحة للنَّبي «محمَّد»، أم لم يَرِد؟

ولأنَّ الإجابـة بـ «وَرَد»، أو «لـم يَـرِد»، بالقطـع، سـتكون غيـر واقعيَّـة مطلقًا، بالإضافة لسطحيَّتها التي لا تليق بعمق هذا السُّؤال، الضَّاربة جذوره في التَّاريـخ لأكثـر مـن 1400 عـام، وجدت نفسـي وقد وَقَعْـت في «حيص بيص».

فأنـا بالأسـاس أديـبٌ، صنعتي كتابـة المُبتـدَع، أقلب العالـم، وما يبدو كحقائـق رصينة، لأكتـب تصوُّراتي عبر تخيُّل حالات وأكـوان موازية، هذا مـا أحبُّـه وأجيـده، في حيـن أنَّ ما طلبـه منِّي «درويـش» يحتاج إلـى دارسٍ

متخصـص لهذا الموضوع الشَّـائك، موضوع يسـتلزم أكاديميًـا فَتَّقه تحليلًا ودراسة.

ورغـم امتلاكي القـدرة على التَّطواف بين مختلـف الكتب، والمصادر، التـي تُمكِّننـي من كتابة بحثيَّة جيِّـدة في هذا الموضـوع، إلَّا أنَّ ما يهمّني لن يتحقَّـق، أقصـد كتابة رؤيتي أنا، المبنيَّة على ما عشـته أنـا، والتي، من وجهة نظري، أصدق من قراءة ألف كتاب.

سأكتب إذن تجربتي الخاصَّة مع التيَّار السَّلفي من هذه الزَّاوية المحدَّدة، لعل الإجابة الشَّافية تكون فيها، وربما، ويا لسوء الحظ، تُضيف إلى السُّؤال سؤالًا آخرَ!

كانت السَّاعة الواحدة بعد منتصف ليل صيفي.

أيُّ شهر؟ لا أذكر.

في أيِّ عام؟ لا أذكر.

لكنِّي سـأخبرك، عزيزي القارئ، بحدث عالمـي، كان يواكب ما يجري معي، لتحدِّد بنفسك متى جرى لي ما جرى؛ ففي نفس التَّوقيت كان «صدَّام حسين» يُعـد للظُّهور علـى الشَّاشـات، غـدًا، فـي أوَّل حلقة مـن حلقات محاكمته علنًا.

حشـد هائل من ضبَّاط، وعسـاكر، ومخبري أمن الدَّولة، يملأ كل مكان في شـقَّتي، ما عـدا المطبخ، الذي راعوا أن زوجتي قـد احتجبت عنهم فيه، حتَّى الدَّرج كان ملغمًا بهم، واكتشفت بعد ذلك، عندما اصطحبوني معهم، أن الشَّـارع قد ضج بأربع عربات «بوكس» قميئة المنظر، وأن عربة ضخمة،

مـن عربات ناقلات الجنـود، تقف حائرة مثل الخنزير، على رأس الشَّـارع، لأنَّها لم تتمكَّن من دخوله.

سـجَّل أحدهم أسـماء الكتب التي كانت على المنضدة: أحد مجلَّدات تفسير «القرطبي»، آخر من كتاب «أُسد الغاب»، ثالث من «فقه السنَّة»، رابع مـن «فتح الباري في شـرح صحيح البخاري»، وكتابان، لـم أكن قد قرأتهما بعد، من كتب «المراجعات» لـ «ناجح إبراهيم»، ثم سألني:

- عندك كتب تانية؟

- نعم.. كرتونة «بوتاجاز» مليانةكتب فوق السطوح.

لكنَّهـا لـم تكن الكتب التي يحبُّون تسـجيلها كمسـتندات اتِّهـام، كانت كتبًـا أدبية، وروايات، وأعمالي، ألقيت بها فوق السُّـطوح بعد أن كفرت بأن الأدباء يمكن أن يقدِّموا حلولًا لما نعيشـه، أو يغيِّروا العالم، كما كنت أحلم وأتخيل.

لـم يهتم أمـن الدَّولة بملاحقتـي لخطورتي على السُّـلطة كأديب، وإنَّما لانضمامي إلى جماعة «التبليغ والدَّعوة» السَّـلفية، فـ «الشَّـيخ» أخطر تأثيرا من الـ «أديب»، لأن «الشَّيخ» لم يكن مستعدًا للتدجين مثلما كان «الأديب»، و«الشَّـيخ» يبحـث عـن تغيير كل هـذا المجتمع لصالـح فكرتـه اليمينيَّة، لا مجـرَّد تغيير النِّظام، بينما «الأديب» ما زال يبحث عن مكان له في المنظومة المجتمعيَّة! و«الشَّـيخ» يلعب مع السُّـلطة لعبة سياسـة، مـدركًا أنَّه لن يتَّفق معها، ولن تتَّفق معه، وأن أحدهما سيوجِّه، على حين غفلة، الضَّربة القاضية للآخـر، بينما «الأديـب» يلف ويدور في حظائر المؤسَّسـات الثَّقافية التَّابعة للسُّـلطة مـن أجل «قطعـة عظم»، فـلا مجال للمقارنـة بين خطـورة كليهما

بالنِّسبة للسُّلطة، «الشَّيخ أخطر»، ولهذا السَّبب وحده امتلأ بيتي بعناصر أمن الدولة، واقتادوني إلى المكتب، على كورنيش «الأقصر»، بعد رحلة طويلة داروا فيها على بيوت أخرى، في القرى المحيطة، لينتزعوا من سكينتها رجالًا آخرين أصحاب لحى طويلة، وأفكار ذات خطورة أطول على السُّلطة، وحتَّى وقتها لم أكن أطلقت العنان للحيتي بعد، كما أنِّي لم أقصِّر ثيابي، ولم أوجِّه زوجتي، بشكل جدِّي، لارتداء النِّقاب.

أدخلوني، مع آخر، في غرفة الزُّوار، وأغلقوا علينا الباب، كانوا قد سحبوا منَّا الهواتف المحمولة، والهويَّات معهم منذ البداية، وهكذا عزلونا، بمنتهى البساطة، عن العالم، وعن أنفسنا، ولم نتبادل أنا، وهذا الآخر، غير حديث قصير عن ماهية ما يجري لنا، وأسبابه، فنحن نتبع جماعة سلفية، نعم، لكنَّها جماعة لا علاقة لها، مطلقًا، بأيَّة جماعات أخرى، بل تتعمَّد تحاشيها، متفرِّغة للدَّعوة إلى الله بعيدًا عن السِّياسة، فما الذي يخيف السُّلطة منَّا؟!

عندما سمعنا صوت المؤذن لصلاة الفجر، ينساب في بحر ليل حزين، ليرسوَ في قلوبنا المستغربة، كنَّا قد وصلنا إلى قناعة بأن من يحرِّك العرائس كلها ضد الإسلام هو «أمريكا»، وأنَّها تظن، بدفعها للأنظمة العربيَّة الديكتاتوريَّة الحاكمة كي تضطهد الملتزمين المسلمين، ستطفئ نور الإسلام، فقررت، في نفسي، أن أغيظ «أمريكا»، وأثبت لها أن عكس ما تريده هو ما سيكون.

بعد انتظار، طال لساعات، وبعد أن أخرجونا من غرفة الزوَّار الكريمة، والتي رُصَّت فيها كراسي «الفوتيل»، ليلقوا بنا في غرفة الحجز، لنتمدَّد على

أرضية من الخرسانة، وكانت العصاري قد حلَّت، نادوا على اسمي لمقابلة ابن «الهرمة» ضابط أمن الدَّولة.

خرجت من الغرفة، وتبعت أحدهما إلى الطَّابق الثَّاني، ليدخلني إلى غرفة ضيِّقة بها مكتب «شيك»، و«تليفزيون» ينقل وقائع الجلسة الأولى لمحاكمة «صدَّام حسين».

تعمَّدت أن أمدَّ يدي لمصافحة الضَّابط، كان قصدي نفسيًّا بحتًا، ألَّا أشعر بأنَّني متَّهم سيمثل أمام محقِّق، وتكرَّم الرَّجل بمد يده ومصافحتي، بل أشار إلى المقعد الذي أمام مكتبه بما يعني أن أتفضَّل بالجلوس، فجلست.

قال لي: ما رأيك في «الغناء»؟

في الحقيقة ارتبكت للحظة، فأنا، كسلفي، أومن بأن الغناء حرام، لكن هذه الإجابة بمثابة ابتلاع طعم واضح جدًّا، كما أن الكذب حرام قطعًا، والمداراة ليست من المروءة، فحاولت التملُّص بسؤال مقابل:

- رأيي أنا أم رأي الدِّين؟

فقال: رأيك من رأي الدِّين.

قلت: الدِّين بيقول «الغناء» حرام.

- طيِّب.. و«البنوك»؟

- برضه حرام.

- و«الحاكميَّة».

«الحاكمية؟!»، كأنِّي أسمع هذه الكلمة لأوَّل مرة!

- إيه «الحاكميَّة» دي يا افندم؟!

أطلق من عينيه نظرة متشكِّكة صفعت وجهي، قبل أن يقول:

- ما تعرفش «الحاكميَّة»؟!

- متهيَّألي أوَّل مرَّة أسمع عنها!

- إيه رأيك في حكم «مبارك»؟

- اللي يهمِّني إنُّه بيقيم في المسلمين الصَّلاة.. طالما بيعمل كدا يبقى خلاص.. لا يجوز الخروج عليه وإن جلد المسلمين وأخذ أموالهم.. الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام قال كدا.

هناك بقية للحوار، لكنَّها لا تهمّنا في موضوعنا، وإنَّما المهم هو أنَّه بمراجعة إجابتي، عن سؤال الضَّابط حول حكم «مبارك»، أنكرت، كسلفي، الخروج عليه، ولم أفكِّر، للحظة، في «حِلِّيَّة، أو «حُرمَانيَّة»، طريقة تقلّده لأمر الحكم، لأنَّه، وطوال ثمان سنوات بين السَّلفيين، لم تُطرح داخل حواراتنا فكرة أن حكَّامنا جاءوا إلى سدَّة الحكم بطريقة تخالف نصًّا قرآنيًّا، أو حديثًا شريفًا صحيحًا، في حين كانت حواراتنا تعج بتحريم «مجلس الشعب»، الذي يشرِّع من دون الله، وكان كل ما يؤرقنا، كمؤمنين صالحين، هو أن يُطبَّق شرعُ الله في الأرض.

لكن كانت لنا أحلام.

فإذا ما انتهينا من الصَّلاة، وجلس الواحد منا يحدِّث أخاه، كنَّا نسترجع مجد الخلافة، خاصَّة الرَّاشدة، أيام «أبوبكر» الصدِّيق، و«عمر بن الخطاب» الفاروق، و«عثمان بن عفان» ذي النُّورين، و«علي بن أبي طالب» باب مدينة العلم، و«عمر بن عبدالعزيز» حفيد الفاروق، تلك الخلافة التي كان يعجبنا منها تواضع هؤلاء العظماء، وعدلهم المُتحرَّى، ثم كنَّا نرى الأمر، بعد هؤلاء، مُلكًا عضودًا تَزيًّا بشكل الخلافة، كما أخبر بذلك رسول الله، وكنَّا نعرف أن كثيرًا، من هؤلاء الخلفاء، كانوا فسقة، عرابيد، أهل مغنى وكأس خمر، لكن كان يعجبنا منهم أن شرع الله، رغم مُجونهم، يتم تطبيقه، فكنا نقول إنَّه بفضل تطبيق هذا الشرع اتَّسعت بلاد الإسلام، وزهت حضارته، فنتصعَّب، ونطلق الزَّفرات السَّاخنة، ونتمنى لو أنَّنا نعيش حتَّى نرى الزَّمن الذي سيدخل فيه الإسلام بيوت «الوبر» و«المدر»، بذل «الذَّليل»، أو بعز «العزيز»، لنحيا تطبيق الشَّرع المقدَّس.

ولمَّا كنَّا نتخيَّل أن الخلافة يمكن أن تعود، فلم نكن نتصوَّرها، أبدًا، مَلِكاً متوَّجًا منفوخًا في كرسي السَّلطنة، تهز الطواشية مراوح الرِّيش فوق رأسه، وإنَّما رأيناها على نسق «الاتِّحاد الأوروبي»، دولًا إسلاميَّة تُدار برئاسة واحدة، يكون للشُّورى فيها الدَّور المحوري.

على أن السَّلفيين، هؤلاء الذين عشت بينهم، كانوا كأي مواطنين مصريِّين، شغلتهم الحياة كثيرًا، وتاهوا في طرقات المعايش، ينامون وهم يفكِّرون في «قيام الليل»، لأن «قيام الليل» باب واسع للارتزاق، فلم تكن قضيَّة «الخلافة» مبلغ همّهم بالدَّرجة التي يتخيَّلها المنظِّرون الأكاديميُّون،

الذين يستقون معلوماتهم، بدورهم، من منظِّري الجماعات الإسلاميَّة، ومن كتب التَّاريخ، لا من معايشة حقيقيَّة لواقعهم.

ربما يطرح، كل ما سبق من كلامي، إجابة واضحة على سؤال «سمير درويش»، لكن هل نملك، نحن المثقَّفين، سعة صدر، ورجاحة عقل، يمكِّناننا من فهم هذه الإجابة، وتغيير النَّظرة نحو هؤلاء باعتبارهم وطنيِّين ولاؤهم الأوَّل لله، كأي فصيل ديني في العالم - فلا أظن أن المسيحي الصَّالح يمكن أن يفرِّط في «يسوع» من أجل «مصر» - ومن ثمَّ فتح حوار مباشر معهم لتصحيح، أو على الأقل، تقارب المفاهيم لصالح لُحمة بلادنا المصرية؟!

هذا هو السُّؤال الذي أراه جديرًا بالطَّرح الآن.

«القاهرة» 2014م

أكره الموتَ كُرهًا حسنًا

هل يُمكن أن يأخذ الرَّاوي الحكمة من شخوص رواياته؟!

هل يُمكن أن يملأ المبدع، الخالق، نقصًا في ذاته، عبر احترام مفاهيم مخلوقاته التي أوجدها على أوراقه؟!

أجيب، على هذا السُّؤال، وأنا مشحون بالأسى.

للأسف الشَّديد: نعم.

أتأسَّف لأن المُبدع، الخالق، يجب أن يكون مُمتلكًا للحكمة كُلِّها، أو على الأقل، لنصيب أوفر ممَّا قد يستطيع المخلوق، بطل الرِّواية، امتلاكه منها؛ فكيف الحال وقد يبدو، في عالم العمل الرِّوائي، أنَّ المخلوق أكثر حكمة من خالقه؟!

لكنِّي، حين أتأسَّف، فأنا أتأسَّف وقلبي يفيض بالسَّعادة والفرح، فمبلغ مُراد المُبدع، الخالق، أن يُوجِد الشَّخصيَّة المكتملة، حتَّى وإن فاقت اكتمال ذاته، فهذا بالأساس، سيشهد له، هو أولًا، بتمام قدرته على الخلق، وأنَّه المُبدع الفائق.

أنا في «أوتوبيس» قديم، يزحف في طريق، مُتربة، تتلوَّى بين خُضرة الحقول الزَّاهية، طفلًا، أرى الدُّنيا من حولي، وأفهم منها، فقط، أنَّ الفصل

الدِّراسي قد انتهى، وأنَّ والدي، الجالس بجواري يتمرجح جسده مع الاهتزازات العنيفة لـ «الأوتوبيس» المُجهَد من طول عمره، إضافة لعدم استواء الطَّريق، يصحب أسرتنا الصَّغيرة لقضاء الإجازة الصَّيفيَّة في النَّجع، الذي تجذَّرت فيه أصولنا، نجع «الخمايسة»، التَّابع لمركز «جهينة»، محافظة «سوهاج»، سيتركنا هناك، ويعود إلى عمله بـ «الأقصر»، شُرَطيًا بسيطًا، وهو ابن العائلة الكبيرة بالنجع، وأبوه شيخ البلد بحاله.

طفلًا، أرى الدُّنيا من حولي، وأفهم منها، فقط، أنَّني ذاهب الآن إلى الحقول، وبيوت الطِّين اللابدة تحت جذوع النَّخيل الشَّاهقة، والحدآت التي تُحلق في سماء بالغة الصَّفاء، وساحقة البُعد، والحمير النَّشطة، والكلاب المُبهجة بنباحها الصدَّاح، والمصرف الذي سأنزل في مائه بجسدي، مع أولاد أعمامي، ونقبض بأصابعنا الرخوة على أسماكه الغرقانة في عنفوانها، والطِّين الذى سنصنع منه تماثيلنا، عرائس، وبهائم، وجرَّارات زراعيَّة، وطواحين هواء، وبالليل ستتحلَّق حول جَدَّتنا، أمام البوَّابة الضَّخمة، التي يُمكنها أن تستوعب «الجمل بما حمل»، في نور القمر، أو على ضوء اللمبة «العويل» المهتز بدخانه، لتحكي لنا عن الشَّاطر «حسن» وأمِّنا «الغولة»، و«العفريتة» التي لها أرجل الماعز.

لا أعرف لماذا لم تكن هناك، أبدًا، حكايات لطيفة، غير مرعبة؟! هل لأنَّ الإنسان، حتَّى وهو مجرَّد طفل، تستهويه سير العالم الآخر، ويستمتع باستشراف عوالم الموتى، وإن كان الثَّمن ارتعاد جلده، و«فرفطة» قلبه بالرُّعب؟!

ننزل من «الأوتوبيس» لنشق طريقًا طويلة، مجرَّد مدق ضيق، على حافَّة التِّرعة الغربيَّة، تنحشر فيه سيقان النَّخيل المُهمَلة، وأحراش الحلفاء، وعندما نخرج من عتمة الغابات هذه، تنفتح الدُّنيا بسماء لا أفق لمنتهاها، وأرض صفراء طرحت آلاف القبور، حيث ترقد في أعماقها المدلهمَّة آلاف الأجساد التي تخلَّص منها الأحياء، عندما وجدوها قد بردت، وسكن الدَّم الحار عن التدفُّق في عروقها، تخلَّصوا منها رغم أنَّها لأناس كانوا أعز النَّاس!

لماذا يا ربِّي يدفن النَّاسُ أعزَّ النَّاس؟!

في قلب الخُضرة، ووهج مراتع الحياة، تموت العصافير، لمَّا تأتي طائرة رش المبيدات، وتُلقي بحمولتها على أشجار القطن، تموت ببساطة، من غير أن يشعر بها أحد، ولا حتَّى العصافير الأخرى، ونحن كأطفال، كلنا فرحة بسقوط العصافير، ندرك الحَيَّ منها، ونفصل، بمنتهى المرح، رؤوسها عن أجسادها، نمارس روعة الحياة، وعلى «الصَّاج»، الذي اسودَّ، من طول وضعه على نيران «الكوانين»، نشوي العصافير المُغتالة، ثم نأكلها.

لا تترك المبيدات سمك التِّرع، إنَّه يموت في قلب الحياة، في قلب الماء، ويطفو مقلوبًا، ابيضاض أسفله يصير وهَّاجًا على صفحة المياه، وعندما تظهر الأسماك الحيَّة، وقد دوَّخها المبيد، نقتنصها قنصنا للعصافير، لتلقى نفس المصير فوق «الصَّاج» الكئيب، تحترق في ضحكاتنا.

ها هو وجدان الحياة برَّاق بالانتعاش في نجع «الخمايسة»، والموت يصنع أسطورته بتمكُّن، لقد مات «جلال» في «أسيوط»، أكله القطار،

وحفـروا لـه القبـر، وعندمـا تأخَّر وصـول جثمانـه، دفنـوا في قبـره جثمان أمِّـه، التي قضت فور سـماعها لخبـر موته، وحفروا له قبرًا آخـر، لم يكن له بالأساس.

آخر، كان واقفًا يشـهد دفن عمتي، ولم يكن يعلم أنَّه، وفي نفس الوقت من غد، سـتجري علـى جثمانه نفس مراسـم عمليَّة الدَّفن التـي تجري أمام عينيه الآن..

أذهب إلى مقابر نجعنا، وحيدًا، أحاول أن أتعرَّف على أحاسيس الوحدة فـي مدينة الموتى المعمورة بالخـراب، والمذكورة بالنِّسـيان، وأتعرَّف إلى نفسـي لمَّـا آتي هنـا، يومًا ما، في رحلـة من غير عودة، وكيف سـيكون حال نفسي.

بيـن قبريـن، أحدهمـا لجـدِّي الشَّـيخ «عبدالسـميع»، والآخـر لوالـده «عبدالله»، هناك متسع جميل، رماله ناعمة كالحرير، مكان تآلف معه قلبي، فتمدَّدت فيه، وقلت لنفسي: أنت الآن ميت، ووحيد، ما الذي يضايقك؟ كل النَّاس تموت، فمت كما يموت النَّاس.

أنـا لا أمـوت كما يمـوت النّاس، أنـا لا أموت فتبقـى الدُّنيا فـي بهائها، تحتفـي بالحيـاة، إذا أنا متُّ فلـن أرضى بأقل من البقاء فعَّالا، أشـغل النَّاس بموتـي، كمـا شـغلتهم بحياتي، وإذا كان السَّـابقون قد رضـوا بالموت، فأنا لست راضيًا.

لماذا يموت النَّاس؟

ملايين البشر، على امتداد التَّاريخ الإنساني، ماتوا لأنَّهم استسلموا الفكرة الموت، وآمنوا بقدريَّته، وأنَّه مُحال مواجهته، وأنَّ الحياة حتمًا مسلوبة، وأنَّ الرُّوح لا بد من أن تهجر الجسد، فعاش النَّاس عبيدًا لـ «عزرائيل»، يموتون ببسـاطة، ويحملـون علـى أكتافهم أعـزَّ النَّاس، يُلقـون بهم إلـى القبور، ثم ينتظرون أعزَّ النَّاس ليحملوهم بدورهم، والسَّاقية دوَّارة.

- قل: أنا حيّ.

- أنا حيّ.

كن منتبهًا، لا تترك ثغرة تقتنصك، عبرها، مراسيل الموت، وأوَّل النَّجاح هـو إدراكك لقـوَّة الحياة، كن في ركبها الآمن، واحذر مـن غفوة النَّوم، فإنَّه بوَّابـة الموت الواسـعة، تُدخِل جمالـه بأحمالها، نم بعين واحـدة، ودع عينًا مستيقظة للمراقبة.

وكـن مبدعًا، فالمبدع لا يمـوت، وإن مات فعلًا، سـيعود حتما للحياة، فهو وَقودها اللازم.

الخلاصة: قَرِّر ألَّا تموت.

فالبشريَّة تبحث الآن في معاملها، تُكوِّن المعادلة، وترسم خرائط للرُّوح، داخل الجسد، ليس فيها منافذ للهروب، فلا يموت الإنسان، ويحقِّق خلوده بذاته.

أعتدل من استلقائي بين قبريْ جَديّ، ليس لي مكان هنا، أنا الحيُّ الذي قرَّر ألَّا يموت.

في زياراتي الأخيرة لنجع «الخمايسة»، أمرُّ على القبور، راكبًا درَّاجتي البخارية، وأنظر إلى المكان الذي استلقيت فيه قديمًا، لم يعد فارغًا كما كان، وإنَّما امتلأ بقبر سكنه جثمان ابن عم لي، كان في ريعان شبابه، لكنَّه لم يعِ كلامي، حيث ترك ثغرة تسلَّل إليه الموت عبرها، واختطفه خطفًا مُريعًا.

وأنا بقيت لأكتب أسفاري، وأُبلِّغ رسالتي أنْ: يا أيُّها الإنسان.. تسلَّح بالثَّورة، واكره الموت كُرهًا حسنًا، وانتزع حياتك، وابذرها بالأمل، لتحصد بقاءك، فلا تفنى أبدًا.

«القاهرة» 2014م

تجارة المتعة في الشارع السلطاني

بما أني أعيش وحدي في «القاهرة»، لأن عائلتي الصغيرة فضَّلت البقاء في أعماق صعيد «مصر»، لظروف تعليم الأولاد، فليس أمامي، كي أسد جوعي، لمَّا يشتد، إلا اللجوء للمطاعم، لآكل ما أعرف صنفه، ولا أعرف كيف أعده، وكان هذا يقلقني بعض الشيء، لكن، وبعد التجارب العديدة، صرت أتخير وجبات معينة من مطاعم محددة، كانت منها وجبة مفضلة، آخذها كل أسبوع مرة، من مكان محترم جدا، «مطبخيا» وتاريخيا!

وجبة سمك «ماكريل» مشوي، من محل لشواء الأسماك، يقع في حي «الجمالية» من «القاهرة القديمة».

وفي يوم «الجمعة» من كل أسبوع، هذا اليوم الذي أحرص على أن أجعله يوما فاطميا، أصلي في أحد المساجد العتيقة، المرصوصة على طول شارع «المعز»، ثم أذهب إلى مقهى صغير في حارة «السنَّانين»، لأشرب كوبا من الشاي، ثم أمضي بعدها، تقودني معدتي، إلى هذا المشوَى، لأشتري وجبتي ساخنة.

المشي، في هذه المنطقة، يحقق لروائي مثلي متعة كبيرة، مثل تلك التي تتحقق لقرصان يجوب البحار، متهيئا للحظة يقع فيها على كنز الخريطة.

«الجماليـة»، وشـارع «المعز»، بحـر حكايات، والأشـطر يصيد، وعلى عينيـك أن تنتبهـا، طـوال الوقـت، لبقايا التاريـخ المجيد الذي عاشـته دولة الخلافة الإسـلامية في هذه الحاضرة، فالإنسـان المصـري، في تلك الأيام القديمـة، كان يمشـي فـي هـذه الشـوارع متباهيا بمكانـة دولته، معتـدا بها، تمامـا كما يمشـي الآن الأمريكـي في شـوارع «مانهاتن» مثلا، أو الفرنسـي في «الشـانزليزيه»، وعليك أن تشـم بأنفك رائحة الفخر التي تفوح من تلك العمائـر الضخمة، مسـاجد، ووكالات، وبيوت أمراء مماليـك، وعثمانلية، وحتـى بيـوت التجـار، وموظفـي الدولـة العاديين، كمـا أن علـى أذنيك أن تتابعـا لطائـف، وطرائـف، ما يجري بين النـاس، فيكاد لا يكـون هنا غرباء، ولكن ستجد، بالتأكيد، اغترابا ضرب بأطنابه بين الناس، اغترابا سببه تسارع رهيـب للمبـادئ، والقيـم، نحـو التدني، فصـار الصغير لا يهتـم لكبير، ولا الكبيـر يأتلف مع من لا يظهر له الاحتـرام، والطبائع المبتذلة التي تصطنعها شاشات السـينما، والتليفزيون، شـكلت موضة أخلاق، عبثية، صبغت هذه الأيام بصبغتها الكالحة.

صليـت الجمعـة في جامـع «الحاكم بأمـر اللـه»، آخر شـارع «المعز»، وقصدت مقهاي الصغير في حارة «السَّنَّانين»، وطلبت الشاي، وقررت هذه المـرة أن أذهب إلى شـوَّاء السـمك من منفذ هذه الحارة، الـذي ينفتح على شارع «التمبكشية»، لأشتري وجبة غدائي المعتادة.

ولـم أمـش طويـلا حتـى طالعت عينـاي هـذا المبنـى المهيـب، عمارة ضخمة، مشـيدة على الطراز المملوكي؛ فها هي المشربيات العالية البارزة، والمقرنصات المتداخلة، وبوابته الخشبية العتيقة.

مبنـى قديـم جـدا، ورغم قدمـه احتفـظ بكامل بهائـه وروائـه، ليجذب المبنـى كامل انتباهي، ويثير فضولي، فنظرت من بوابته الواسـعة، المفتوحة إلى داخله، لأرى فسـحاية واسـعة، مكشـوفة للسـماء، يدور حولها ما يشبه الحوانيـت، التـي تعلوهـا طبقـة أخرى مـن غرف مطلـة على طرقـة ممتدة يحيطها درابزين خشبي، ثم طبقتان أخريان برزت منهما مشربيات اصطفت بتناسق بديع.

هذا الشـكل المعمـاري لا يتفق إلا مع وكالة مملوكية، فسـألت حارس المبنى عن ماهية هذه العمارة، فأجابني بما توقعت، فسـألته عن اسمها، وأنا أظن أنه سـيذكر لي اسـما مملوكيا فخما، أو عثمانيا مهيبا، من تلك الأسماء التـي وردت في تاريخ «الجبرتـي»، أو في بدائع «ابن إياس»، فإذا به يخبرني بأنها لرجل يقال له «بازرعة»! اندهشـت طبعا، فلم أسـمع، أو أقرأ، من قبل هذا الاسـم العجيب، «بازرعة»، ولما رأى دهشتي، قال: تاجر يمني اشتراها قديما من ورثتها.

واسـتدرك: تعـال يـا أسـتاذ يـوم «الأحـد»، أو «الاثنيـن»، وسـتجد من المهندسـين والموظفيـن بالداخـل مـن يجيبـك عـن كل الأسـئلة التـي في رأسك.

مهندسون، وموظفون!؟

لا يجـب أن يكون داخل هذا المبنى التاريخي مهندسـون، أو موظفون، وإنما من الممكن أن يكون به مرشـدون سـياحيون مثـلا، بدا التعجب على وجهي، فقال وهو يبتسم: «مصر» بلد العجائب.

قلت له: هذا معلم أثري تقف الآن لحراسته، تناوله الأدباء في رواياتهم وأشعارهم، وكتب عنه المؤرخون والباحثون، هل قرأت شيئا من كل هذه الكتب؟

كان جهاز «اللاسلكي»، الذي في يده، يصدر «شخشخة»، وأصوات آدميين غير واضحة، ابتسم وقال: لم أقرأ أي كتاب، المعايش لا تمنح الفرصة كي نمارس هذا الترف، لكنني أعرف أن «نجيب محفوظ» كتب كثيرا عن هذه الأماكن.

ومضيت إلى شوّاء السمك، وأخذت «الماكريل» المشوي، ومشيت في شوارع «الجمالية» أملأ صدري بعبق التاريخ.

في يوم «الاثنين» عدت إلى وكالة «بازرعة»، ودخلت من بوابتها الضخمة إلى ساحتها بعد أن دفعت رسم الدخول.

لم أكن مقتنعا باسم «بازرعة» هذا، وكنت أتشوق لمعرفة اسمها الحقيقي، لابد أن هذه الوكالة، لأمير مملوكي، أو عثماني، من هو؟

كنت أحتاج إلى معلومات مبدئية تساعدني على فهم ما أراه، ودلني أحدهم إلى باب من أبواب هذه الحواصل المرصوصة حول الصحن الواسع، قال: ستجد هناك مكتبا تابعا للمجلس الأعلى للآثار، سيزودك بالمعلومات التي تريدها.

إذن.. بالفعل هناك موظفون لهم مكاتب في الغرف الأثرية!

دخلت المكتب، الذي بالأصل كان «حاصل» لتخزين البضائع، منذ ما يزيد على مائتي عام!

الحاصل - أو المكتب الحكومي الآن - ضيق نسبيا، سقفه مقوس إلى أعلى، لا تزيد مساحته عن ثمانية عشر مترا مربعا، يخلو من أي جماليات أو زخرفة، على غير عادة القدماء في البناء والتشييد، بل إن ترميما جرى أصابه بالقبح، فكل الجدران، والسقف، مطلية بطبقة من الأسمنت، وفقط. هل كانت هناك زخارف طمسها هذا الترميم الجائر، أم أن القدماء تعاملوا بواقعية مع مكان ليس أكثر من حاصل لتخزين البضائع؟ ولم يكن في أذهانهم أن هذه الحواصل ستتحول، بعد مئات السنين، إلى مكاتب حكومية يلزمها بعض الزينة!

طلبت من السيدة، التي تجلس خلف مكتب متهالك من الصاج الكالح لونه، بينما مروحة كهربائية موضوعة على الأرض تدور يمينا وشمالا وهي تئز تعبا ومرضا، معلومات عن المكان، وكأنها وقعت في حرج، إذ أنها قالت، فيما يشبه الارتباك: ليس لدينا معلومات كافية هنا، لكن يمكنك أن تجد الكثير منها في مكتب البحوث الأثرية الملحق بجامع «القاضي عبد الباسط»، أو في «القلعة».

قلت لها: «القلعة» في حي «السيدة عيشة»، بعيدة، سأذهب إلى جامع «القاضي عبد الباسط»، لكن اعطيني معلوماتك غير الكافية الآن، لتفيدني، ولو قليلا، في جولتي الحالية داخل المكان.

صورت لي، مشكورة، ورقة وحيدة، انتهى المسطور فيها بجملة غير مكتملة، تؤكد أن هناك أوراقا أخرى يجب أن تتبع هذه الورقة، لكنها غير موجودة!

فعلا، الورقة منزوعة من بحث ما، إذ أنها تحمل، في ترتيب الصفحات، الرقم 373، كُتب في أوسطها، من أعلى، «وكالة بازرعة»، ثم تاريخ بنائها، الذي حُدد بـ 1162 الهجري، المقابل للعام الميلادي 1749، ثم رقم تسجيل الأثر، وكان (398)، جاءت فيها معلومات موجزة جدا، لا تسمن ولا تغني من جوع، لكنها بالكاد تسد الرمق:

«الموقع: تقع هذه الوكالة بشارع «التمبكشية» المتفرع من شارع «الجمالية»، ويحدها من الجنوب الشرقي مدرسة جمال الدين الأستادار، ومن الشمال الغربي بقايا وكالة «عباس أغا»، ومن الشمال الشرقي شارع «التمبكشية»، وتقع على خريطة الآثار الإسلامية رقم 1 بالمربع 4 ح (خريطة 7)».

وعن تاريخ الإنشاء: «ورد بفهرس الآثار الإسلامية أنها ترجع إلى القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، ويرجع أصل البناء إلى ما قبل ذلك بكثير، فهي ترجع إلى سنة 811 هجرية، المواكبة للعام الميلادي 1408، أما البناء القائم الآن على أرض الوكالة، فيرجع إلى التاريخ المذكور أعلاه».

ثم تناولت الورقة معلومات عن وصف لموقع وكالة «بازرعة» قديما: «كان موضع هذه الوكالة في الدولة الفاطمية أحد أبواب القصر الشرقي الكبير، وهو المعروف باسم «باب الريح»، وكان بابا مربعا يسلك فيه من دهليز مستطيل مظلم إلى حيث المدرسة «السابقية»، وعرف في الدولة الأيوبية بـ«باب قصر ابن الشيخ»، وظل على حاله إلى أن هدمه الأمير

«جمال الدين الأستادار» سنة 811 هجرية، الموازية للعام الميلادي 1408، وبنى في مكان الدهليز المذكور القيسارية الكبيرة ذات الحوانيت والسقيفة والأبواب الجديدة..».. وتنتهي الورقة.

تحيرت أكثر، فالورقة لم تقدم لي معلومات إضافية مهمة، سوى أن أصل هذه الوكالة يعود إلى أكثر من مائتي عام بكثير، إلى ستمائة عام تقريبا، لكنها لم تدلني على اسم صاحبها الأصلي، منشئها الأساسي، هذا الذي كان يتابع بناءها بقلب شغوف، ويصبر على طول الأيام منتظرا لحظة الاكتمال، التي يبرق بها وهج السعادة، وهو يسمع اسمه متنقلا بين الناس كرجل عظيم أنشأ وكالة تجارية فخمة.

خرجت من الحاصل ذي الباب الضيق المنخفض، الذي كادت رأسي تخبط أعلاه، فانتبهت فجأة إلى ملحوظة مهمة، فسألت نفسي: كيف يمكن أن يكون مثل هذا المكان مخزنا للبضائع؟! المخازن يجب أن تكون ذات أبواب واسعة، وعالية، تسمح بدخول الحمَّالين، والعمال، وهم يحملون البضائع على أكتافهم، من غير أن يتسبب ضيق الأبواب في تعطيل العمل، كما أن المخازن، أو الحواصل، يجب أن تكون ذات مساحات مفتوحة، لها منافذ تهوية، في حين أن ضلعا واحدا فقط من هذه الوكالة كانت لحواصله نوافذ صغيرة!

ووثبت في خاطري فكرة مدهشة: ربما لم يكن هذا البناء وكالة تجارية، ربما كان شيئا آخر أشبه بالفندق، مكان لاستقبال الغرباء، أو وكالة فعلا، ولكن لبيع المتعة وشرائها! فضيق الحواصل لا يصلح إلا لمسافر عابر، أو لعاشقين يمكن لهما أن يعتبراه عشا جميلا.

وضحكـت من نفسـي، وقلت: مهمـا حاول التاريـخ أن يـزوِّر الوقائع، فلـن يمكنـه تزوير حالـة لمبنى واقع حقيقـة على الأرض، هـذه وكالة، ظل الناس على امتداد مئات السـنين بالتواتر يسمونها «الوكالة»، والوكالة مكان للتجارة.

وقالـت نفسـي بخبـث: لم نختلـف، ألم أقـل لك، منـذ قليـل، إنها من الممكن أن تكون وكالة لبيع المتعة وشرائها!؟

قلـت لها، منتصرا لتاريخ مشـرف أحبـه أن يبقى لهـذه الوكالة العظيمة: الذي تتحدثين عنه كان الناس يصفونه بـ «الماخور»، وليس «وكالة».

وسمعتها تهمس بصوت يتخفض: لكن ألا ترى الحواصل!؟ إنها ضيقة جدا!

حتى أصل إلى جامع «القاضي عبد الباسط» الأثري، كان عليّ أن أمشي في شـارع «التومبكشـية» القصير، ثم أقطع شارع «المعز»، لأدخل في شارع يؤدي إلى شـارع أضيق، لكنه مشـهور جدا، وهو شارع «سكة برجوان»، هو في الواقع أضيق من أن يكون شـارعا، الأنسـب أن نطلق عليه اسـمه بوصفه القديم الملحق به، سـكة «برجوان»، أو حارة «برجوان»، هذه السـكة تتلوى بين بيوت قديمة قائمة، وبيوت قديمة سقطت وما زال هدمها في مكانه، يشير إلـى أي مدى يعبث المصريون بعمائرهم التاريخيـة، الحارة الأثرية مملوءة بمحلات لبيع الطيور الحية، والمذبوحة، وبورش تنتج بعض قطع الأدوات الصحية المعمولة من الصاج، وبمطاعم الأكل الرخيص، الفول، والطعمية، والكشـري، والكرشـة، والممبار، وعندما مر أمامي بائع العرق سـوس، في ملابسـه المزركشـة، ولعـب بالصاجـات النحاسـية، وانطلق رنينهـا يرقِّص الحارة، أحسسـت بأني، وأنـا الذي أعيش في القرن الواحد والعشـرين، لم أبتعـد كثيـرا عن القرن الخامس عشـر، كل ما كان من حـرف في ذلك القرن البعيـد، لا يزال باقيـا، اختلفت الملابس، اختلفت أشـكال بعـض العمائر؛ أصـوات التليفزيونـات في المقاهـي، والراديوهات فـي المطاعم، هي التي تصنـع الفرق الكبير، ورغم تغير طبيعة الإنسـان المصري، إلا أن مناوشـاته المرحـة مع جيرانه، ومعاركـه الصغيرة التي لا تؤثر على بقاء العلاقات قوية ومتينة، ظلت أخلاقا تميز مصريَّ الحارة حتى الآن.

في «سـكة برجـوان»، صادفتني امـرأة تقف أمام رجل يبيع جبنا قريشـا، وزبدا، وبيضا بلديا، وملوخية جافة، صوتها يعلو فجأة، مشحونا بكل نبرات الاعتـراض: كيلـو الملوخية الناشـفة بـ60 جنيه! ليه!؟ هـا تديني عليه جوز أرانب!؟

وتركـت التاجـر متذمرة، الذي ابتسـم وهو يقول: واحنا ذنبنـا إيه بس يا ست!؟ هيَّ جاية غالية من مكانها!

فـي أي دولـة، مـن دول الخلافة التي مـرت على «القاهـرة»، جرى هذا الحـوار، السـابق، بنفـس صيغته؟ وكـم مرة؟ أكيـد في كل الـدول، ومرات كثيرة، فالإنسان المصري، الذي يعيش في هذه الأماكن العتيقة، ارتحل عبر الزمـن الطويل حامـلا روح المكان، ولم يتخلَّ عن حملـه أبدا، وحمل معه بضائعه القديمة، ومن بينها الملوخية الجافة.

والسـيدات، المصريـات، بارعـات في التسـوق، إن لم يعجبهن السـعر ولم يشـترين، لابد من أن يبعن كلمتين سـاخرتين للتاجر، مقابل بسـمة منه،

أو ضحكة، يعرفن أنها لا تظهر على شفتيه عن طيب نفس، وإنما يداري بها خجله من بضاعته الغالية التي ستركد.

في مكتب للمجلس الأعلى للآثار، في حرم جامع «القاضي عبد الباسط» الأثري! تكلمت مع موظفات عديدات عن بغيتي، معلومات وفيرة عن وكالة «بازرعة»، فقامت إحداهن إلى إحدى الخزانات المتهالكة، وأخرجت ملفا مشحونا بالأوراق، وبعد تقليب، في هذه الأوراق، استمر لدقائق، أخرجت ثلاث ورقات، مكتوبة بخط يد أنيقة، ومجموعة إلى بعضها بدبوس، مدت لي يدها بهذه الأوراق، فأخذتها وأنا مندهش، قلت: فقط هذه هي كل المعلومات الموجودة لديكم؟!

قالت إحداهن: ستجد في هذه الأوراق بعض المعلومات، كما ستجد فيها أسماء مراجع مهمة، هذه المراجع ستجدها في مكتبة جامعة «القاهرة»، ولابد من أن تأخذ ترخيصا بدخول هذه المكتبة من مكتب ....

حكاية طويلة للحصول على معلومات عن مكان واحد، لماذا لا يضعون، في كل مكان أثري، «كشكا» بسيطا يحوي كل ما كتب من معلومات عنه؟ يمكنهم لو نفذوا هذه الفكرة أن يربحوا ماديا منها، يمكنهم أن يبيعوا نسخا من الكتب التي تناولت هذا المكان لرواده من السائحين، والباحثين الأكاديميين أيضا.

المهم، صورت الورقات الثلاث، وأخذت أقرأها، وكان فيها كل ما أحب معرفته عن المكان، طبعا مفاجأة!

تناولت الورقات الثلاث موقع الوكالة، فأضافت لي معلومة جميلة، إن شارع «التمبكشية» لم يكن يحمل هذا الاسم، الذي يدل على أنه كان مركزا مهما لتجارة «التمباك»، ولكن حتى وقت قريب كان يحمل اسما فخما، الشارع «السلطاني».

منحتني الورقات معلومات قيمة عن مادة البناء، وأن الطابقين الأرضي، والأول، قد شيدا من المداميك الحجرية الكبيرة، المتساوية الأبعاد، أما المداميك الثلاثة العلوية فقد بنيت بالآجر، وكانت الحكمة، أن المداميك السفلية هي مداميك الأساس، ولابد أن تكون أقوى.

أنا الآن في فناء الوكالة، وبكل أحاسيسي أسبح في وسع التاريخ الإسلامي المهيب، هذا التاريخ الذي استطاع أن يهبنا أبنية، وعمائر، تمتاز بكل هذه الأبهة والجمال، فعلا، مساحة الوكالة، بالتخمين، تقترب مما ذكرته معلومات الأوراق الثلاث، مستطيل مكشوف مساحته 25 مترا في 11 مترا، ترتفع الأبنية من حوله حتى 14 مترا، هذا الفناء كان مكانا لربط الجمال، والنوق، والحمير، والبغال، التي تحمل البضائع الواردة، والصادرة، إلى ومن الوكالة، المفروض أن يكون كذلك، وإن كان كذلك بالفعل، فأين الحوض الكبير الذي كان من عادة الأجداد بناؤه لسقي الدواب؟ نظرت حولي أبحث عنه، لكني لم أجد له أثرا!

إذن، ربما تفكيري في أن هذا المبنى كان فندقا هو التفكير الصحيح!

صعدت سلما خشبيا إلى الطابق الأول، بصحبة أحد رجال الأمن، كنت قد طلبت منه أن أرى أماكن السكن ذات المشربيات، وكانت هذه مغلقة بالأقفال، فلما عرف الرجل أني سأكتب عن الوكالة تطوع لصحبتي، قال:

هذه السلالم لم تكن خشبية، كانت صخرية، لكن عند الترميم وجدوا أن الخشب سيكلفهم أقل!

الحواصل أيضا تدور حول الطابق الأول، هذا ما تقوله معلومات الورقات الثلاث، لكن صاحبي قال: الغرف أشبه بمكاتب هذه الأيام، كانت تتم فيها صفقات البيع والشراء.

كلام صاحبي، رجل الأمن، أوجه من كلام الورقات!

- تعتقد أن هذه وكالة تجارية فعلا؟

- نعم، كان «بازرعة» يبيع فيها الصابون، والعطور، هذا مكتوب على اللافتة الإرشادية التي عند بوابة المدخل، سمعت أنه كان يبيع فيها البن اليمني أيضا.

ما تصورته في ذهني، من احتمالية أن يكون هذا المبنى فندقا وليس وكالة، خطأ، فالحواصل، التي تصورتها غرفا للنزلاء، لا تصلح مطلقا للمعيشة، لأنها تفتقد لأهم عنصر حياتي، دورة المياه!

وليس معنى أن أماكن السكن، في الطابقين الثاني والثالث، كانت صالحة لممارسة حياة معيشية متكاملة، نظرا لوجود دورة مياه، ومطبخ صغير، في كل وحدة سكنية، أن هذه الوكالة كانت فندقا، وإلا ما الداعي لوجود حواصل ضيقة في مدار طابقين كاملين؟!

كانت المعلومة التي قدمتها الأوراق الثلاث صحيحة بشكل مؤكد، فالتجارة تتم في الحواصل، والتجار، الذين يفدون من مختلف بلدان

العالم، كانوا يستريحون أياما في هذه الوحدات السكنية حتى يحين ميعاد المغادرة.

لم يكن ممكنا أبدا أن أترك هذه الوحدات السكنية دون العيش قليلا في تاريخها العتيق، ربما في هذه الوحدة، التي أقف فيها متأملا مشربيتها الطالة على الفناء الواسع للوكالة، ثمة تاجر من تجار العصور الوسطى، أوروبي من «اليونان»، أو من بلاد «الغال»، كان يجلس هنا وقد راعته الحضارة العربية الإسلامية المتوهجة، التي أمكنها أن تكون قادرة على إقامة مراكز عملاقة تستطيع توفير كل سبل الراحة للتجار الوافدين من مختلف بقاع الأرض، وتتعامل مع كل الجنسيات من غير تفرقة، فمنحته مكانا للإقامة المريحة دون النظر إلى العقيدة، أو الجنس.

من المؤكد أنه في هذه الوحدات السكنية، تخفف تجار، عاشوا قديما، من ملابسهم، وناموا على فرشهم يحلمون بمكاسب، ويخافون الخسائر، ويحملون همَّ السفر بسفن تلعب بها أمواج البحار الهائجة، وربما نام أحدهم غير مهموم بكل هذا، بقدر ما اهتم بأمر قلبه الذي يدق اشتياقا للقاء محبوبة ودعها منذ أيام طويلة، ووعدها بعودة رابحة تعينه على لم الشمل.

ابتهج قلبي كثيرا بهذه المعلومة التي وردت في الورقات الثلاث، والتي تؤكد أن مؤسس هذه الوكالة هو أمير مملوكي اسمه «حسن كتخدا»، وكان وقتها ملقبا بـ«الكيخيا»، وأن هذه الوكالة، لوقت طويل، كانت تتمتع باسم تاريخي مهيب وجميل، وكالة «الكيخيا»، قبل أن يميل بها الزمان فتسمى بوكالة «التمبكشية»، لتحول التجارة في الشارع الذي تقع فيه إلى تجارة

«التمباك»، وهو نوع من الدخان المعسل، قبل أن يسميها مالكها الأخير باسمه اليمني العجيب «بازرعة».

ولم يكن الأمير «حسن كتخدا» من هؤلاء الأمراء الهمل، وإنما ورد ذكره في «عجائب الآثار» الذي خطه «الجبرتي»، كان سياسيا محنكا، ومحاربا أصيلا، وواحدا من هؤلاء المماليك الذين ضجت بهم فترة مهمة من تاريخ «مصر»، ثم إنه كان من هؤلاء الذين يفهمون ما للروحانيات من تأثير في نفوس العامة والدهماء، فقام بتوسعة المشهد الحسيني بعد أن اشترى، بماله الخاص، عدة أماكن محيطة به ليضيفها إليه، ثم لم يكتف بذلك، وإنما «صنع له تابوتا من أبنوس مطعما بالصدف، ومضببا بالفضة، وجعل عليه سترا من الحرير المزركش بالمخيش»، ثم... لما تمموا صناعته، وضعه على قفص من جريد، وحمله أربعة رجال، وعلى جوانبه أربعة عساكر من الفضة مطليات بالذهب، ومشت أمامه طائفة «الرفاعية» بطبولهم وأعلامهم، وبين أيديهم مباخر الفضة، وبخور العود والعنبر، وقماقم ماء الورد يرشون منها على الناس، وساروا بهذه الهيئة حتى وصلوا المشهد، ووضعوا ذلك الستر على المقام»

وقفت أنظر من فجوات إحدى المشربيات إلى فناء «الوكالة»، وراحت عيناي تسبحان ضد تيار الزمن، تعودان إلى الوراء، فتريان أستار المشهد الحسيني وهي تخرج من هنا، وسط تكبير وتهليل الصوفية، وتوزيع كاسات الشربات الأحمر على الحضور الجم، من الأهالي، والمساكين، والأطفال، ربما كانت تعلو زغاريد النساء أيضا، بينما عيونهن تتراقص بالفرحة من خلف براقعهن الشفافة، والأمير «حسن كتخدا» فوق صهوة

فرس عربي أصيل غرقان في زهوه بما يجري، وهو يتقبل بامتنان قبلات الغلابة على يديه.

لابد وأن أستار المشهد الحسيني كانت تخرج من هذه «الوكالة»، وإلا فمن أين وردت فكرة خروج أستار «الكعبة»، مع كل موسم حج، على رأس مالكها الجديد، التاجر اليمني «بازرعة»؟

نعم، لقد بلغت هذه «الوكالة» نهاية الشرف العلي، لكون كسوة «الكعبة» المشرفة تخرج منها كل عام، مع بداية موسم الحج، وهذا دليل على فحش ثراء «بازرعة» هذا، ولم لا، وهو أول من أدخل تجارة البن اليمني إلى «مصر» المحروسة أيامها!

إذن، ومن هذا الفناء أيضا، كان المشهد المهيب لخروج الكسوة الشريفة، لابد وأن مشايخ الأزهر، وكبار رجال الطرق الصوفية، وقضاة المذاهب الأربعة، وكثير من الأمراء المماليك كانوا يحتشدون في هذا الفناء، ولابد أن هذا اليوم يكون جليلا، وأن «بازرعة» يطوف عليهم مرحبا بهم بسمت التجار، فرحان بشدة، لكونه استطاع، وهو الغريب عن هذه البلاد، أن يكون له هذا التمكين المكين.

يتكلم تاريخ «الجبرتي» عن الأمير «حسن كتخدا»، فيقول: «ومات الأمير «حسن كتخدا عزبان الجلفي»، وكان إنسانا خيرا له بر، ومعروف، وصدقات، وإحسان للفقراء، توفي يوم الأربعاء تاسع شوال سنة 1124، وخرجوا بجنازته من بيته بمشهد عظيم حافل، وصُلي عليه في سبيل المؤمن بالرميلة، واجتمع بمشهده زيادة عن عشرة آلاف إنسان، وكان حسن الاعتقاد، محسنا للفقراء والمساكين، رحمه الله».

صوت رجل الأمن، دليلي، شدني من سرحتي التاريخية: هل تحب رؤية شيء آخر؟

كنت قد رأيت كل شيء، فشكرته.

بينما أغادر «الوكالة» وقعت عيناي على لوحة رخامية، ثُبتت على الجدار، بجوار البوابة الخشبية الضخمة، لوحة تخبر عن أن هذه الوكالة قد تم تجديدها في زمن «حسني مبارك» رئيس «مصر»، الأسبق، ووزير ثقافتها، الأسبق، «فاروق حسني»، ومحافظ «القاهرة»، الأسبق، «عبد الرحيم شحاته».

رأيت هذه اليافطة فهاجت كوامني، وعجبت من الزمن الدوَّار، كنت قد بدأت أسأل نفسي عن سبب تنكر التاريخ لنهاية حياة «بازرعة»، وعدم احتفائه بها، وكنت قد وصلت لإجابة أراحتني: التاريخ لا يحتفي بالتجار الودعاء، بقدر ما يحتفي بالمحاربين الجسورين، حتى أنه يمكنه أن يسبغ عليهم، بمنتهى الكرم، صفات الصالحين المصلحين، في حين أن من يصنعون الحياة يموتون مجهولين.

كان الجوع قد بلغ مني مبلغه، فأوليت ظهري لوكالة «بازرعة»، ووليت وجهي شطر شوَّاء السمك.

«القاهرة» 2012م

الفهرس

الموضوع	الصفحة
حُلمي الجميل	9
سيمياء النصّ الإبداعي	15
كي أكون إنسانًا أجمل	21
السلخانة في حديقة الزهور	37
الأقصر / القاهرة / الأقصر.. بـ«الموتوسيكل»	49
صافرة القطار يا «هيلينا»	79
أنا الأديب	95
عرائس «الماريونيت».. وأصابع الأشباح	101
السِّر	121
إيه «الحاكميَّة» دي يا افندم !	129
أكره الموتَ كُرهًا حسنًا	137
تجارة المتعة في الشارع السلطاني	143

«ما هي تلك القوة الخلاقة المكنونة داخل تكوين الكلمة، التي ما إن يستلهمها المبدع، الساحر، فينطق بها بيانا، أو يكتبها نصا، حتى تتفجر في دناءاتنا لصالح سمونا، تقيم الإنسانية طازجة كطزاجتها على سفينة نوح، تمخر بها عباب الهلاك إلى نجاة متصلة؟!

إنها قوة السحر الإلهي، لا السحر الأسود.

ففي قلب كل مبدع متسعٌ لروح الله، وروح الله تهب القلب المضياف قوة السحر المخبوءة بين حرفين يكونان كلمة الإرادة ورمزها: كن.

كن، أيها العالم بين دفتي روايتي، فيكون.

الكتابة أسمى تجليات السحر.

والمبدع أعظم السحرة»!

***

تتجلّى هنا مقدرة الروائي، حين يطلق العنان لذاته كي تتحرك وتقفز وتطير حرةً، لا يحدُّها الزمن أو يعرقل جموحها المكان.

المتعة الخالصة هي فقط كل ما يتبقى بحوزتنا، حين نصحب ساردًا بارعًا في رحلته الحرة تلك، كي نكشف معه مناطق خبيئةً في نفوسنا، وجنانًا خلابةً في زوايا الحروف والكلمات.

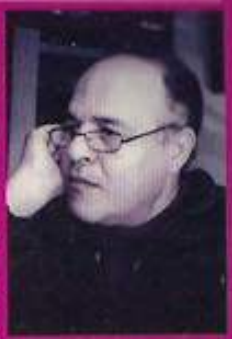

أشرف الخمايسي روائي مصري وعضو باتحاد كتاب مصر، فاز بالجائزة الأولى في مسابقة "أخبار الأدب" للقصة القصيرة 1994، اختيرت روايته "منافي الرب" للقائمة الطويلة للبوكر 2014، كما وصلت الرواية نفسها للقائمة الطويلة لمسابقة معهد "أكيودي الصينية" 2014، ووصلت رواية "انحراف حاد" للقائمة الطويلة لجائزتي البوكر والشيخ زايد عام 2015. صدر له ثلاث مجموعات قصصية وثلاث روايات.